

مقاربات نقدية في التربية والمجتمع

تصدر عن مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية

العدد الثالث عشر
(أيلول/سبتمبر)
خريف (2022)

دور استراتيجيات التدريس الإبداعية في تنمية مهارات المعلمين في قصة إربد

د. أثير حسني الكوري

التأسيس الفلسفي لأخلاق البيئة عند الفيلسوف الألماني هانس يوناكس Hans Jonas

د. لحسن الياسميني

السّير المتجاوزة: قراءة في حوارية سيرة عمر بن الخطّاب

أ. علي وسلاتي

الخطبة: الأهجى، الأصدق! نحو تحليل ثقافي للخطاب الشعري العربي

د. عبد الفتاح شهيد

معالجة المستوى التركيبي-دلالي للغة بين المقاربة الإحصائية والمقاربة المبنية على نظام القواعد

أ. سالم الرامي

الاستدلال التمثيلي في الشعر العربي القديم

أ. أحمد فريحي

نقد وتنوير

العدد الثالث عشر - السنة الرابعة - (أيلول - سبتمبر) 2022

ISSN 2414-3839



تصدر عن مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية

غرناطة – إسبانيا

جميع الدراسات والمقالات والمواد المنشورة
في المجلة والموقع تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز أو المجلة

التواصل الإلكتروني

critique.lumieres@gmail.com

يمكن مراسلة رئيس التحرير عبر العنوان التالي

watfaali@hotmail.com

watfaali55@gmail.com

(مواقع المجلة على الشبكة)

www.tanwair.com

المراسلات البريدية

غرناطة – إسبانيا

Watfa Shadi

Calle Francisco Dalmau 3, 4B. 18013-Granada

Granada -Spain.

إدارة المجلة

رئيس هيئة التحرير

أ. د. علي أسعد وطفة

نائب رئيس هيئة التحرير

أ. د. هشام خباش

مدير التحرير

د. امبارك حامدي

سكرتير التحرير

د. عبد الله بدران

مدير العلاقات الخارجية

أ. محمد الإدريسي

محرر القسم الإنكليزي

أ. واعزيز خالد
أ. اسماعيل الفيلاي

الإشراف الفني والالكتروني

د. شادي وطفة

هيئة التحرير

أ. د. علي أسعد وطفة	جامعة الكويت	الكويت
أ. د. هشام خباش	جامعة سيدي محمد بن عبد الله	المغرب
د. امبارك حامدي	جامعة قفصة	تونس
د. عبد الله بدران	الجامعة الأمريكية	كندا
د. اسماعيل بن الفيلالي	جامعة فاس	المغرب
أ. د. جيلالي بوحمامة	جامعة الكويت	الكويت
أ. د. حسن طنطاوي	جامعة القاهرة	مصر
د. حسني عبد العظيم	جامعة بني سويف	مصر
د. زهاء الصويلان	جامعة الكويت	الكويت
د. زينب التوجاني	جامعة منوبة	تونس
د. سيف بن ناصر المعمرى	السلطان قابوس	عمان
أ. د. شاهر الشاهر	جامعة دمشق	سوريا
د. شادي وطفة	جامعة غرناطة	اسبانيا
د. صلاح الدين العامري	جامعة الزيتونة	تونس
أ. د. عبد الرحيم العطري	جامعة سايس فاس	المغرب
أ. د. عماد صموئيل وهبة	جامعة سوهاج	مصر
د. العنود الرشيدى	جامعة الكويت	الكويت
د. فوزية العوضي	جامعة الكويت	الكويت
د. ليلى الخياط	جامعة الكويت	الكويت
أ. د. مجدي محمد يونس	جامعة المنوفية	مصر
أ. محمد الادريسي	جامعة ابن طفيل	المغرب
د. مختار مروفل	جامعة معسكر	الجزائر
أ. مزيد معيوف الظفيري	جامعة الكويت	الكويت
د. نبيل الغريب	جامعة الكويت	الكويت

الهيئة الاستشارية

أ. د. بدر ملك	كلية التربية الأساسية	الكويت
أ. د. بسام العويل	جامعة بيدغوش	بولندا
أ. د. جاسم الكندري	جامعة الكويت	الكويت
أ. د. خديجة حسن جاسم	دار الحكمة	بغداد
أ. د. سمير حسن	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ. د. سهير محمد حوالة	جامعة القاهرة	مصر
أ. د. سميرة حربي	جامعة الشاذلي بن جديد	الجزائر
أ. د. صالح هويدي	جامعة جميرا (دبي)	الإمارات العربية
أ. د. عبد الله المجيدل	جامعة دمشق	دمشق
أ. د. عبد الله البريدي	جامعة القصيم	السعودية
أ. د. عدنان ياسين مصطفى	جامعة بغداد	العراق
أ. د. علي الشهاب	جامعة الكويت	الكويت
أ. د. علي الصالح المولي	جامعة صفاقس	تونس
أ. د. فاطمة نزر	جامعة الكويت	الكويت
أ. د. لاهاي عبد الحسين	جامعة بغداد	العراق
أ. د. محسن بوعزيزي	جامعة قطر	قطر
أ. د. محمد الطبولي	جامعة بني غازي	ليبيا
د. محمد حبش	جامعة أبو ظبي	الإمارات
أ. د. محمد بوهلال	جامعة سوسة	تونس
أ. د. محمد سليم الزبون	الجامعة الأردنية	الأردن
أ. د. محمود محمد علي	جامعة أسيوط	مصر
أ. د. هاني حتمل محمد عبيدات	جامعة اليرموك	الأردن
أ. د. يعقوب يوسف الكندري	جامعة الكويت	الكويت

تصدر مجلة نقد وتنوير (مقاربات نقدية في التربية والمجتمع)، وهي مجلة فكرية تربوية محكمة عن مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية، تنشر المجلة ورقياً وتوزع في أنحاء العالم العربي. وتُنشر إلكترونياً على موقع: www.tanwair.com.

انبثقت رسالة المجلة من شعور مؤسسها الأستاذ الدكتور علي وطفة بالحاجة إلى إصدار مجلة للدراسات التربوية والاجتماعية ذات رؤية نقدية، يمكنها أن تسهم في توليد ثقافة تنويرية لدراسة التحديات التربوية والثقافية التي تواجه المنظومات التربوية العربية المعاصرة. ومن هذا المنطلق فإن مجلة (نقد وتنوير) تسعى إلى إنتاج خطاب تنويري حداثي، يسهم في تغيير واقع المجتمع العربي، بمناهج علمية ومقاربات فكرية نقدية رصينة.

وضمن هذه الرؤية، تسعى المجلة إلى التميز، في مجال الدراسات التربوية والاجتماعية والثقافية، وإلى تحقيق أعلى درجة ممكنة من التأثير في الوعي والثقافة التربوية باستحضار البعد النقدي في مقارباتها لموضوعة التربية والثقافة وقضايا المجتمع الفكرية والتربوية.

وتهدف مجلة (نقد وتنوير) إلى تحقيق الأهداف الآتية:

تشكيل مرجعية علمية مميّزة للباحثين وأن تقدّم انتاجاً علمياً يتميز بالجدة والأصالة.
إحداث حركة تنوير ونقد فكرية في مواجهة التحديات التربوية والثقافية المعاصرة.
الانفتاح على الثقافات العالمية والعمل على ترجمة أهم الأفكار والتصورات المتجددة في مجالات العلوم التربوية والاجتماعية والثقافية.

مدّ جسور التواصل بين المفكرين والباحثين والأكاديميين العرب، مشرقاً ومغرباً؛ لتبادل الخبرات والتجارب، بما يسهم في خدمة الباحثين والمهتمين بالدراسات التربوية والاجتماعية والحضارية.

إشاعة الفكر التربوي الفلسفي النقدي في مواجهة مختلف مظاهر الخطاب التقليدي والأسطوري الذي عفا عليه الزمن، ولم يعد صالحاً لتلبية حاجتنا الفكرية والحضارية، مواجهة صريحة شاملة.

اهتمامات المجلة: تعنى المجلة بالدراسات والأبحاث النقدية التي تغطي المجالات الآتية:

البحوث العلمية الرصينة في التربية والمجتمع والتاريخ واللغة وعلم النفس والأنثروبولوجيا الثقافية، والدراسات المعنوية بأعلام التربية وعلم الاجتماع، ومستقبل التربية وفلسفتها، والمقالات والتقارير والترجمات العلمية، وعرض الكتب الجديدة ومراجعتها والأعمال العلمية التي يمكن أن تسهم في تطوير التربية ورقياً والمجتمع وتطوّره حضرياً.

شروط النشر

- ترحب المجلة بنشر الأبحاث والدراسات النقدية في مجالات التربية وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية ومختلف مجالات العلوم الإنسانية، وترحب أيضا بجميع المقالات التي تتناول العلاقة بين التربية والثقافة والمجتمع، وتهتم المجلة بالعلوم البينية ما بين التربية ومختلف العلوم - أدب، فن، سياسة، علم اجتماع، أنثروبولوجيا، علم نفس، طب، صحافة الخ.
- ترحب المجلة أيما ترحيب بالمقالات التربوية النقدية المترجمة عن اللغات الأجنبية والتي يمكنها أن تتخاض مع الثقافة العربية وتغني العقل التربوي العربي بمستجدات الفكر في مجال التربية والمجتمع.
- تنشر المجلة المقالات والدراسات الفكرية النقدية الأصيلة التي تتوافر فيها الشروط المنهجية في الجدة والإحاطة والاستقصاء والتوثيق، في العلوم التربوية والاجتماعية، على أن تكون مكتوبة باللغة العربية.
- يفضل أن يصحب المقال بملخص في حدود 200 كلمة باللغة العربية وآخر باللغة (الفرنسية أو الإنجليزية).
- يشترط في البحث ألا يكون قد نشر (ورقياً أو إلكترونياً) أو قدّم للنشر في أي مكان آخر.
- يجب على الباحث أن يقدم تعهداً يؤكد فيه أن البحث أصيل ولم يسبق نشره.
- يجب أن يتسم البحث بالأصالة وبالقيمة العلمية والمعرفية وبسلامة اللغة ودقتها.
- ترحب المجلة بالتقارير العلمية ومراجعات الكتب وملخصات عن المؤتمرات وطروحات الماجستير والدكتوراه والمقابلات والندوات والحوارات الفكرية في مجال الثقافة والتربية والمجتمع.
- تخضع البحوث المقدمة للتحكيم، وتعامل وفق الأصول العلمية المتبعة التحكيم.

ترسل البحوث والمقالات والدراسات والترجمات إلى رئيس التحرير على البريد الإلكتروني

critique.lumieres@gmail.com

watfaali@hotmail.com

ضوابط النشر

- ينضد البحث أو المقالة إلكترونيا باستخدام برنامج Microsoft Word ويراعى ألا يزيد عدد صفحات المادة العلمية على (40) صفحة، بما في ذلك الأشكال والرسوم والجداول والهوامش والملاحق.
- يزود الباحث المجلة ملخصا باللغة العربية وآخر بالإنكليزية أو الفرنسية عن المادة المرسلة بحيث لا تزيد عدد كلمات الملخص عن 200 كلمة.
- يتوقع من الباحث أن يذكر الصفة العلمية ومكان العمل والعنوان (البريد الإلكتروني) ورقم الهاتف للتواصل من جهة وتضمنين الضروري منها في متن البحث.
- يرجى من الباحث تضمين البحث كلمات مفتاحية دالة على الموضوع الدقيق.
- لا يحقّ للباحث نشر البحث أو جزء منه في مكان آخر بعد إقرار نشره في مجلة (نقد وتنوير) إلا بموافقة رئيس هيئة التحرير.
- يفضل في التوثيق الاعتماد على التوثيق التقليدي (اسم المؤلف، عنوان الدراسة أو المؤلف، دار النشر، بلد النشر، تاريخ النشر) ولا ضير في اعتماد أسلوب جمعية علم النفس الأمريكية (APA) تحتفظ المجلة بحقوقها في أن تُعيد صياغة بعض الجمل لأغراض الضبط اللغوي ومنهج التحرير.
- يتقدم الباحث بإقرار يعلن فيه أن العمل المقدم أصيل لم ينشر سابقا ولم يرسل إلى النشر.
- تتعهد هيئة التحرير بالتعامل مع المواد بجدية وأن ترسل لأصحابها ردا سريعا على استلام البحث وأن ترسل إليهم أيضا خلال فترة شهر في الحد الأقصى بقبول البحث أو رفضه من قبل الهيئة.
- يمكن للباحثين الاطلاع على موقع مركز نقد وتنوير www.tanwair.com لمشاهدة فعالية المجلة والاطلاع على المقالات والأبحاث المنشورة فيها
- ترسل البحوث والمقالات والدراسات والترجمات إلى هيئة التحرير على البريد الإلكتروني critique.lumieres@gmail.com

المحتويات

1	كلمة التحرير	
13-11	د. امبارك حامدي	
2	المقال الافتتاحي: الجوع إلى التقدير	
20-14	د. عماد عبد اللطيف	
بحوث ودراسات		
3	الاستدلال التمثيلي في الشعر العربي القديم	
53-22	أ. أحمد فريحي	
4	الأداء الموسيقي	
70-54	أ. المصطفى عبدون	
5	درجة ممارسة الإبداع الإداري لدى مديري المدارس في لواء الطيبة والوسطية من وجهة نظر المعلمين	
94-71	د. أثير حسني الكوري - د. ميرنا سامي زريقات - د. أحمد غالب سليمان	
مقالات		
6	التأسيس الفلسفي لأخلاق البيئة عند الفيلسوف الألماني هانس يونس	
120-96	د. لحسن الياسميني	
7	التبعية الثقافية ورضوخ الناقد العربي لها	
135-121	أ.د. نادية هناوي	
8	السيرة المتجاوزة: قراءة في حوارية سيرة عمر بن الخطاب	
152-136	أ. علي وسلاتي	
9	دور استراتيجيات التدريس الإبداعية في تنمية مهارات المعلمين في قصبة إربد	
164-153	د. أثير حسني الكوري	

المحتويات

10	الحطيئة: الأهمي، الأصدق! نحو تحليل ثقافي للخطاب الشعري العربي
198-165	د. عبد الفتاح شهيد
11	فخر الشواعر بين الاغتراب والألفة
220-199	أ. هنيدة قصد الله
12	معالجة المستوى التركيب-دلالي للغة بين المقاربة الإحصائية والمقاربة المبنية على نظام القواعد
229-221	أ. سالم الرامي
قراءات في الكتب	
13	قراءة في كتاب: مقالات في التاريخ والسياسة لإيمانويل كانط
240-231	د. كمال طيرشي
مقالات مترجمة	
14	تكنولوجيا التناسل
265-242	د. فؤاد هراجة
15	تفكيك تأثير العمليات الذهنية على الأداء الأكاديمي
300-266	أ. ميمون السعيد - أ. عبد الإله المنباري - أ. د. هشام خباش
مقالات باللغة الأجنبية	
16	L'œuvre d'art aujourd'hui :Kant et le bio-art
	Dr. Kahouach Nawel 302-312
17	Students' perceptions of distance education during a Covid-19 pandemic in Tunisia
	Dr. Atia Sami 313-338

الحطيئة: الأهجي، الأصدق!
نحو تحليل ثقافي للخطاب الشعري العربي

Al-Hutay'ah: The most accurate spelling, the sincerest!

Towards a cultural analysis of the Arabic poetic discourse

د. عبد الفتاح شهيد

جامعة السلطان مولاي سليمان
المملكة المغربية

chahidabdefattah@yahoo.fr



الخطيئة: الأهجي، الأصدق! نحو تحليل ثقافي للخطاب الشعري العربي

د. عبد الفتاح شهيد

"وقالوا: أهجي بيت قالته العرب قول الخطيئة في الزبرقان بن بدر:

دَعِ المكارِمَ لا تَرْحَلْ لبغيتها*** واقعد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي"

أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، 169/1

"قال الأصمعي: أصدق بيت قالته العرب وأحكمه قول الخطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه*** لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ"

أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، 114/1

الملخص:

نقرأ "الخطيئة" في القرن الحادي والعشرين لاستشراف قوى صامدة في تراثنا العربي، من أجل إعادة طرح إشكالات الوجود والوعي والوجدان والذاكرة، وتجديد أسئلة التعدد والاختلاف والتداخل والاعتراف. وتعتمد هذه القراءة "التحليل الثقافي" لاستكشاف جينالوجيا خطاب شعري متعدد ومتداخل، لبناء "قصة مقبولة" يتضافر خلالها الشعر والحكي من أجل الالتزام بقضايا الإنسان، ومحاربة أشكال التغيب والتمهيش. ولتأصيل توجه نقدي يستند إلى الثقافة، ويستدعي تلك التفاعلات الحيوية بين النص وسياقه الثقافي، وبين بنيات الجمال ومظاهر الواقع الصلب...

والرهان العلمي هو مساءلة مجموعة من البديهيّات والأحكام المتوارثة حول "شاعر وشعر" كانا أعمق بكثير مما يروج حوالهما، حيث يمدنا "التحليل الثقافي" بمجموعة من الآليات والإجراءات المدعمة بقوة التاريخ والثقافة والنقد لتبرير تلك الثنائيات التي أثبتت شعريّة "الخطيئة"، إنسانا قويا، ومثقفا أصيلا، وشاعرا متميزا. مما انتهينا من خلاله إلى أن الشاعر رسخ رسالة ثقافية ملتزمة في مجتمع واجهه بالرفض والصد، وحقق مكاسب رمزية من خلال ربح معركة الشعر والثقافة، والأهم من ذلك استعادة ذاكرة شعريّة وثقافية يهددها النسيان.

كلمات مفاتيح: التحليل الثقافي - النقد - المواجهة - الثقافة - الذاكرة.

Abstract:

We read "Al-Hatay'a" in the twenty-first century to anticipate steadfast forces in our Arab heritage, in order to reexamine the problems of existence, awareness, conscience and memory, and to renew the questions of plurality, difference, overlap and recognition. This reading is based on "cultural analysis" to explore the genealogy of a multiple and overlapping poetic discourse. The purpose is to build an "acceptable story" in which poetry and storytelling combine in order to adhere to human issues, and to combat forms of negation and marginalization. In order to establish a critical orientation based on culture, it calls for these vital interactions between the text and its cultural context, and between the structures of beauty and the manifestations of solid reality...The scientific quest is the investigation of a set of axioms and inherited judgments about "poet and poetry" that were much deeper than what is being promoted around them, as "cultural analysis" provides us with a set of mechanisms and procedures supported by the power of history, culture and criticism to highlight those binaries that fueled the poetry of "Al-Hutay'a", a strong, educated person An original, distinguished poet.

Key-words: heritage, difference, poetic discourse, cultural, criticism.

1- مقدّمة:

إن وضع اسم الحطيئة اليوم في محرّكات البحث يُنبئ عن مجموعة من "الوصوم" السلبية، من قبيل هجائه لأبيه وأمه ونفسه، وردّته وسفّهه، وقصّته مع عمر بن الخطاب والزريقان بن بدر. وهي "الوصوم" التي يتوارثها أجيال القراء والمثقفين العرب، من زمن الرواية إلى زمن الكتابة، ثم في زمن الأنترنت. وهو استمرار للظهور المزهق والشاق للحطيئة: جرول بن أوس، جشعا، سؤولا، ملحفا، قبيح المنظر، مغموز النسب، فاسد الدين؛ فحلا، فصيحاً، مجيداً، متين الشعر، شرود القافية؛ قلّما تجد في شعره عيباً أو مطعناً؛ يمدح فيرفع، ويهجو فيضع. ثم ينال إعجاب فئة قليلة يزودون عنه فيقدّمونه، ويحصّد حنق فئات كثيرة ينبذونه فيؤخّرونه.

وحين نقرأ الحطيئة في القرن الحادي والعشرين إنما نكتشف مساحات فريدة في ذواتنا، ونهتدي إلى طرائق الإجابة عن أسئلة الشعر المقلقة، ونقتدي بمنهج أثير في صياغة معايير النّقد، ونستشرف قوّة غير محايدة في مقارنة إشكالات الثقافة. إنّنا في العمق نجدّد أسئلتنا، ونمحصّ فهمنا، ونحقّق إجراءاتنا وأحكامنا، ونحن نعيد طرح أسئلة الوجود والوعي والوجدان والذاكرة في مستوى أوّل، ثم أسئلة التعدّد والاختلاف والتداخل والاعتراف في مستوى تالي. إنّنا حين نعود إلى نصوص من الماضي لدراستها، إنّما "نعكف على دراسة أنفسنا"، ونعمل على ترشيد قوانا المهدورة في الإبداع والنّقد والثقافة.

وفي هذا المضمار تستدعي هذه القراءة "التّحليل الثقافي" لمقاربة نقدية أصيلة ومتجدّدة للخطاب الشعري العربي، ولبناء "قصة مقبولة" يتضافر خلالها الشعر والحكي. تلمّساً لاستثمار ما توصّلت إليه المعرفة الإنسانية بالنصوص، من خلال التفاعل المستمر بين الأنا والآخر، والماضي والحاضر؛ ضمن أخلاق التواصل والاعتراف، والالتزام بقضايا الإنسان، ونبذ أشكال التغييب والتهميش. وتأصيلاً لتوجّه نقدي يستند إلى الثقافة في النّظر إلى الوجود والإبداع، ويستشرف الجمال ضمن مساحات الصّمت والكلام، في ذلك الحوار الشيق والعميق بين النصّ وسياقه الثقافيّ، وبين أسئلة الجمال والواقع المفعم بالمعنى...

والرهان العلمي هو مساءلة تلك البدّهيات والأحكام المتوارثة، التي جرى تعهدها بعناية كبيرة، حول "شاعر وشعر" كانا أعمق بكثير مما يُروّج حوالهما. ولما كانت "القضايا المحقّقة لا تستطيع أن تقوم مقام التبريرات الإستمولوجية" حسب بورديو، و"حسن النّية لا يكفي في أي تحليل علمي" فقد كان "التّحليل الثقافي" مجموعة من الآليات والإجراءات التي مدّتنا بقوّة التّاريخ والثقافة والنّقد في اكتشاف تلك الثّنائيات المتوتّرة والمناطق الرمادية التي كان يحيا فيها الحطيئة وشعره. بين قلق ظاهر وحسم عميق، وبين قضيّة شاعر وشعرنة قضيّة، وبين عمق الدّكرة ومكر النسيان، وبين قوّة الهجاء وصدق المدح، وبين امتداد الثقافة وانحسار السياسة؛ تمتدّ مساحات الثّنائيات التّقابلية التي شكلت مدار هذا المقال.

2- نحو تحليل ثقافي للخطاب الشعري:

يسعى التحليل الثقافي cultural Analysis إلى تحديد الصّلات بين النّصوص وعمقها الثقافي بامتداداته المختلفة، وإلى الكشف عن قيم الرّفص والتقبّل وأشكال الهيمنة والمقاومة فضلا عن مظاهر الإيديولوجيا والوعي. ويتميّز بالتزامه بقضايا الإنسان ومساءلته لأشكال العيش المشترك، وسبل تطويره على مستويات الإبداع والثقافة والمجتمع؛ من خلال المجاورة بين ما هو داخلي وما هو خارجي، وعبر الانفتاح على التاريخ والأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع؛ في إطار التّداخل الثقافي وعوالة الثقافة واضمحلال الحدود بين المعارف وآليات التّحليل، ومن أجل إعادة بناء السّياق، لفهم أشمل وأعمق يتلافى التّبسيط والتّسطيح. ونروم الاستفادة من إجراءات التّحليل المستند إلى الثقافة في مقارنة أنماط الخطاب، وخصوصا "الخطاب الشعري العربي"، الذي ظلّ ديوان العرب الأعمّ، وحينهم الأوّل، وعنوان أخلاقهم الأهمّ. فضلا عن أنّه مجمع المحاسن والجمال، باختلاف الحقب والأزمان. فكان، وما يزال، يكتنز أنساق الثقافة، ويستدمج مضمرات الخطاب، وينضح بالقيم الإنسانيّة السليمة والأخلاق العربيّة الأصيلة والأنماط التّعبيرية الجميلة. وقبل ذلك وبعده فهو جزء من ماضينا وإرثنا الثقافي الغامر؛ ذلك الماضي الممتدّ بشكل أو بآخر في الحاضر والمستقبل.

فأمام نزيف الخطاب وغنى التّجارب الإنسانيّة وتنامي أنساقها الثقافيّة والجماليّة؛ نكاد نعدم في سياقنا العربي آليات متينة تعيننا على التّحليل والإدراك بالاستناد إلى السّياق، وتجعل ثقافتنا ترتاد الأفق الإنساني وتجاوز امتدادها الكوني... وهي إجراءات حقّقت من خلالها مجتمعات أخرى تقدّما ملموسا في مقارنة الخطابات المختلفة كما في إنتاجها، بينما لا نزال عربيا نفتقد إلى الاهتمام بالقضايا المتشكلة في أكثر الهوامش فاعليّة وقوّة، ولا نولي اهتماما كبيرا لأنظمة الرّموز والإشارات والممارسات الثقافيّة التي تتنامى هنا وهناك بعيدا عن المراكز الكبرى والدوائر الضيّقة لاتّخاذ القرار السياسي والأدبي، ولا نبحث عن ذلك الأفق الكوني الذي تُغني به ثقافتنا العربيّة غيرّها وتغني به في ذاتها.

وإذا كان الشّعور من أكثر مظاهر التّعبير الإنساني ثراء، فإنّه من أكثر مظاهر الثقافة العربيّة شفافيّة وعمقا، وأعظمها دلالة ونضوحا بالرّموز والمعاني والقيم لاكتنازه عناصر الفنّ والجمال، وتحوّلات التاريخ والثقافة والمجتمع، وتجليّات الهيمنة ونزوعات المقاومة. والتّحليل الثقافي، الذي نقترحه، إجراء تحليلي نقدي، يستطيع استيعاب الأفاق المختلفة التي يرتادها الشّعور العربي، المتماثلة والمتنافرة، الفرديّة والجماعيّة، المكثّفة والممتدّة. كما يروم التّنبية إلى هذه التّجربة الثقافيّة العظيمة والمغامرة الإنسانيّة الجديرة بالاستكشاف، والتي ارتاد غمارها الشّعراء بكل شغف والتّزام، وتعهّدها النّقاد بالرّعاية والتّوجيه والنّقد بكل عمق وإطلاع.

إنّ منابع الشّعور هي ذاتها، وعلاقات الشعراء المطمئنة أو القلقة بالواقع تقتفي الآثار نفسها، ونزوعاتهم للتّغيير والتّأثير تستدعي اللّغة دائما وسيلة للتّعبير، وآليّة لممارسة قوة مُهيمنة، أو أداة لبلورة موقف مقاوم. ولذلك فإنّ الرّهان الأساس هو جعل الشّعور العربي قديمه وحديثه يرتاد آفاق الكونيّة، ودفع النّقد العربي إلى الانفتاح على هذه التّجارب النّقدية البينيّة التي أضحى لها الشّفوف اليوم في المجتمع النقدي العالمي

اليوم. من خلال تقديم نماذج متميزة من الشعراء والنقاد العرب إلى الثقافة العالمية بأبعادهم المتعددة، وقدراتهم المتفردة في فهم الإنسان والعالم، وهو ما يستطيع التحليل المستند إلى الثقافة أن ينهض به بكفاءة نزعاً منها كبرية وعالية.

يعتبر الحطيئة من هؤلاء الشعراء المتميزين في الشعرية العربية، ومن الشعراء الذين نالهم اهتمام الرواة وحنقهم، وعدل النقاد وتجاوزهم، وتقدير الشعراء وحسدهم. ومن الشعراء القلائل الذين استطاعوا عبر حياة شعرية مديدة، وفي مرحلة تاريخية خطيرة ومتميزة، أن يبلوروا موقفاً مقاوماً في علاقاتهم القلقة بالإبداع والنقد، وبالواقع والسلطة، وبالمجتمع والسياسة. ويستحقّ بجدارة أن يُقدّم باعتباره نموذجاً كونياً جديراً بالقراءة والتأمل ثقافة وشعراً، قيماً وجمالاً، سلطة ومقاومة، بعيداً عن الأحكام المسبقة، السريعة، والمتحيزة.

إن ما يميز شعر الحطيئة، كما سنرى، هو أنه نتاج تلك المساحات البينية والمراحل الانتقالية بين عصور مختلفة ونماذج متباينة، ويقع في قلب عاصفة من الثنائيات المتوترة بين الإيمان والكفر، الجاهلية والإسلام، الشعر والقرآن، القبول والرفض، السلطة والمقاومة، المركز والهامش.... دون أن يغادر، حياته كلها، تلك المناطق الرمادية، والوضع المقلق، والتساؤل المتواصل، فظلّ يعيش في الظاهر قلقاً كبيراً وضيقاً مستمراً، ويعيش في العمق حالة حسم عميق لاختياراته الثقافية والشعرية. ممّا يجعلنا أمام تجربة إنسانية وإبداعية فريدة ومتواصلة ومُلهمة.

لقد استطاع الحطيئة أن يُرسّخ توجّهات مدرسة شعرية ذات نزوعات نقدية عميقة، وهي مدرسة عبید الشعر. كما استطاع أن يُوجج معارك نقدية، كان دائماً شعره في بُؤرتها، حول وظيفة الشعر ومقاصده، وثنائيات الطبع والصنعة، والصدق والكذب، والإسلام والشعر. كما كان شعره بنية ثرة للاستشهاد والتداول في المعاجم وكتب النحو والبلاغة والتفسير. وقد لا نبالغ إذا قلنا إن شعر الحطيئة أكبر من شعر شاعر مفرد؛ إنه نتاج مدرسة شعرية هو أكبر ممثلها، ومثال حالة ثقافية هو أبرز المنظرين لها، ومؤسس توجّه نقدي هو حامل لوائه؛ لأن الشعر عنده مشروع ثقافي كبير، وورش إبداعي مفتوح، وتوجّه نقدي راسخ في العلم والثقافة، لا ينهض به رجل واحد مهما بلغت عارضته الشعرية وقوته النقدية وإحاطته الثقافية. فمكث ينافح على ما يراه الشعر الحقيقي، وظلّ يحمل لواءه إلى أن بلغ به مرحلة الأمان، ووصل به إلى أجيال لن تملّ أو تكلّ من حمل رسالاته والإبداع في جمالياته.

3- القلق الظاهر والحسم العميق:

الحطيئة، جروول بن أوس، ويكنى كذلك أبا مليكة، من بني قضيعة بن عبس، وقيل من بني ذهل، وقيل إن نسبه يضرب إلى بكر بن وائل، وذكروا أن نسبه متدافع بين قبائل العرب. "قال عنه ابن الكلبي: كان الحطيئة مغموز النسب، وكان من أولاد الزنى الذين شرفوا"¹. عاش قبل الإسلام وبعده، وفي كتاب الأغاني أنه كان ذا شرّ وسفه. ونقل عن الأصمعي أنه قال: "كان الحطيئة جشعا سؤولا ملحفا دنيء النفس، كثير الشرّ، قليل الخير، قبيح المنظر، رث الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين... وقال أبو عبيدة: كان الحطيئة بذيا هجاء، وكان هجا أباه وأمه ونفسه... وينتهي ابن قتيبة بعد مناقشة قضية إسلامه إلى القول: "وكيف ما كان فإنه كان رقيق الإسلام، لثيم الطبع"²... وفي الأغاني أنه "كان ذا شرّ وسفه، ونسبه متدافع بين القبائل"³. وإمعانا في رسم صورة بشعة لرجل نجح في جعل الجميع ضده، يتفنّن الرواة في تصوير لحظة وفاته؛ "ومن المشهور عنه أنه قيل له حين حضرته الوفاة: أوص يا أبا مليكة، فقال: مالي للذكور من ولدي دون الإناث. فقالوا: إن الله لم يأمر بهذا، فقال: لكّي أمر به! ثم قال: ويل الشعر من الرّواة السّوء، وقيل له: أوص للمساكين بشيء، فقال: أوصيهم بالمسألة ما عاشوا، فإنها تجارة لن تبور! وقيل له: أعتق عبدك يسارا، فقال: اشهدوا أنه عبد ما بقي عبي! وقيل له: فلان اليتيم ما توصي له بشيء؟ فقال: أوصي بأن تأكلوا ماله وتنيكوا أمه! قالوا: فليس إلا هذا؟ قال: احملوني على حمار، فإنه لم يمت عليه كريم، لعلّي أنجو! ثم تمثل:

لكلّ جديدٍ لذةٌ غيرَ أني رأيتُ جديدَ الموتِ غيرَ لذيذٍ له خبطةٌ في الخلقِ ليست بسكرٍ ولا طعمٍ راحٍ يُشتهي ونبيذٍ ومات مكانه"⁴.

وفي النسب الشعري كان الحطيئة راوية زهير، وينسب إلى مدرسة عبید الشعر العريقة، وقد ظلّ يقدم عليه زهيرا في مناسبات كثيرة، ويعترف له بشاعرية فريدة، قل أن يعترف بها لغير آل بيت زهير. أجمع رواة الشعر ونقادهم أنّ الحطيئة "من فحول الشعراء ومقدميهم وفصحائهم، متصرف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب، مجيد في ذلك أجمع"⁵. وجعله ابن سلام في الطبقة الثانية مع أوس بن حجر، وبشر بن أبي حازم، وكعب بن زهير، قائلا عنه: "وكان الحطيئة متين الشعر، شرود القافية... وكان جشعا سؤولا"⁶. وهي الملاحظة التي نسبت لأكثر الرواة والنقاد. حيث هذه المقابلة المرهقة لأذهانهم بين ما يعتبرونه متانة الشعر وسوء الخلق. ومن أخبار الأغاني: "كان الحطيئة جشعا سؤولا ملحفا، دنيء النفس، كثير الشرّ، قليل الخير، بخيلا، قبيح المنظر، رث الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين، وما تشاء أن تقول

1- عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997، 407/2.

2- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ط2، 1958، ص322.

3- أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط3، 2008، 101/2.

4- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص322.

5- أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، 101/2.

6- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، قراه وشرحه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، 104/1-111.

في شعر شاعر من عيب إلا وجدته، وقلّما تجد ذلك في شعره... وقال لي الأصمعي وقد أنشدني شيئا من شعر الحطيئة: أفسد مثل هذا الشعر الحسن بهجاء الناس وكثرة الطمع¹. ولعل هذا التقابل الذي أرهق الرواة بني التّسامي الفتيّ والتدنيّ القيمي، راجع بالأساس إلى النّظر إلى شعر الشّاعر خارج الأنساق التّحافية التي أنتجته والسّياقات التّاريخية والاجتماعية التي تبلور خلالها، والزّهانات التّقديّة المتمثّلة فيه. فأنشؤا على الشّعر وأسبغوا صفات القبح والدّمامة على صاحبه.

لقد اختار الحطيئة موقعه منذ البداية شعريّا وثقافيّا ونقديّا، فدفع دفعا إلى الهامش، ووجد ذاته في بؤرة صراع هو أحد أطرافه، مع نزول الدين الجديد، والسّعي إلى بلورة قيم أخلاقية وجمالية على مستوى العقيدة والشريعة والأخلاق، وعلى مستوى الثقافة والنقد والشعر. فلم يحسن إسلامه، وبعبارة ابن قتيبة كان رقيق الإسلام، وبعبارة الأصمعي كان فاسد الدين. وعند آخرين أنه كان كثير الشر قليل الخير، لنيم الطّبع. أما على المستوى الشعري فرغم ثنائهم على جودة شعره فقد ذكروا أنّه كان بذيا هجاء... وهي صفات نووية تدور في فلكها العديد من الصّفات الأخرى التي تدفّقت بها خيالات الرواة لتقدّم شخصية الحطيئة في صورة شيطانية بذيئة قبيحة خلقا وحُلُقا، تُخفي الكلمات القليلة التي قالوها حول جودة شعره...

هذه الصّورة البشعة التي تتناقلها أجيال الرواة وقراء الأدب العربي إلى اليوم، وتترسخ في أذهان الطّلبة والباحثين دون مساءلة أو مراجعة، تخفي الكثير من التّور والعلم والإبداع والنقد. فما يتناقلونه ليس إلا الوجه الظّاهر والسّطحي من قضيّة الحطيئة وشعره. فالرجل كان مثقفا شامخا، وشاعرا فحلا، وناقدا راسخا. سعى كل حياته إلى تعميق وجوده الثقافي، وتبليغ الرسالة الإبداعية التي يمثّلها، وتمديد حياة مدرسة عبید الشعر التي كان آخر فحولها، وهو ما تنبه إليه قلة من الدّارسين باحتشام كبير لا يتجاوز مستوى الإعجاب أحيانا والتّعاطف أحيانا أخرى.

4- قضية شاعر أم شعرة قضية؟!

لقد كان طه حسين من الدارسين القلائل الذين تعاطفوا مع الحطيئة، ومن أكثرهم قربا من نزوعاته الفنية واختياراته الثورية؛ غير أنّ ما قاله لم يخدم الحطيئة وقضيته كثيرا، ولم يجد له صدى بين الدّارسين وأجيال الباحثين الذين لم يكونوا يرون في الحطيئة إلّا ذلك السّؤال الملحف والشّاعر الهجاء. ذلك لأنّه جعل قضيّة الحطيئة قضيّة شخصيّة ونزوعات فردية، فعنده أنّه لم يثر كل هذا الصخب إلّا سعيا إلى اتقاء عواقب سوء الدّين، وردّ عوادي الفقر وسوء الحال، والاحتماء من السخرية والاستهزاء. وإلا فقد كان الحطيئة "أخمل ذكرا، وأهون شأنا، من أن يظهر له خطر في الإسلام أيّام النّبي، ولكنّه اضطر حين انهزم المرتدون إلى أن يدعن لما أذعنّت له العرب، ويدخل فيما دخل فيه الناس"². ويضيف طه حسين في ساعته مع الحطيئة من حديث الأربعاء: "على أن بأس الحطيئة وحزنه لم يكونا فيما أرى مقصورين على حياته الماديّة، بل كانا يأتيانه من ناحيتين أخريين كانا يأتيانه من دخيلة نفسه التي لم تطمئن إلى الدين

1- كتاب الأغاني، 2/ 105-110.

2- طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، القاهرة، ط 14، 129/1.

الجديد ولم تؤمن فيما يظهر إلا تكلفاً ورياء، واتقاء للسيف الذي لم يكن للعربي إلا أن يختار بينه وبين الإسلام... والناحية الأخرى هي ناحية جسمه، فقد كان الحطيئة قبيح المنظر مشوّه الخلق، لا تأخذه العين، ولا تطمئن إليه، فكان منظره بشعاً... أضف إلى هذا أنه لم يكن مستقرّ النسب، وإنما كان مدخولاً مضطرباً¹. كل ذلك في رأي طه حسين خلق وضعاً محفوفاً بالمخاطر والابتلاءات، دفع الحطيئة إلى أن يكون على ما هو عليه من الشدة والبأس؛ فقد كان "مهاجماً من جميع نواحيه، مضطرباً إلى أن يدافع عن نفسه من جميع نواحيه أيضاً، كان سيء الدين فكان محتاجاً إلى أن يتقي عواقب سوء الدين، كان سيء الحال، فكان محتاجاً إلى أن يردّ عن نفسه عوادي الفقر والبؤس والإعدام، كان مشوّه الخلق، فكان مضطرباً إلى أن يحمي نفسه من السخرية والاستهزاء، وكان كل ذلك شيء يقوّي في نفسه سوء الظن بالناس، وقبح الرأي فيهم. وكان ابتلاؤه للناس يزيد إسرعا إلى ذلك وإمعانا فيه. فأصبح الحطيئة شيئاً مخوفاً مهيباً يكره منظره ويُنقى لسأته، وتشتري الأعراض منه بالأموال"².

ورغم أن طه حسين يبدي شكاً مريباً في صدق هذه الصورة البشعة التي نجدها في الأغاني وفي الشعر والشعراء وفي طبقات فحول الشعراء؛ فقد أغفل النظر إلى قضية الحطيئة وشعره في بعدهما الثقافي الأعمق. ذلك البعد الذي يُنظر فيه إلى "الثقافة العربية" التي كانت تنسحب من واقع الناس يوماً بعد يوم، وإلى "الشعر العربي" الآيل للضعف وهو يفتقد شعراء المجيدين افتقاده لجاذبيته وجمهوره، وإلى "القيم الجمالية والنقدية" الآيلة للانقراض والتواري؛ بعيداً عن قضية "سوء الدين" و"سوء الحال" و"سوء الخلق" التي أبدع الرواة والنقاد في رسم ملامحها البشعة والسّاخرة أحياناً.

فلو كان أمر الحطيئة شخصياً على ما ذكر، وذاتياً بهذا القدر، لتجاوز به يسر وسهولة بإظهار الانتماء إلى الدين الجديد، الذي لم يكن يحاسب قاصديه على نواياهم الخبيثة، ولم يكن يشقّ على قلوب الناس ليطلع على قناعاتهم المضمرّة. ولو كان الرجل بكلّ هذا الجشع الذي وصف به لأوقف تجربته الشعرية على الدفاع على الدين الجديد والأخلاق الإسلامية المستحدثة. وبذلك كان سيتجاوز تهمة سوء الدين التي دأب الدارسون على تناقلها حتى اليوم، وكان سيتجاوز "سوء الحال" بخلق وضع اعتباري لن يستطيع الوصول إليه إلا القليلون، وقد علمنا إعراض المجوّدين من الشعراء مثل لبّيد وكعب عن هذه المهمة الصعبة، كما علمنا مكانة حسان بن ثابت لدى الرسول صلى الله عليه وسلم وفي مجتمع الصحابة. وفضلاً عن ذلك كلّ، كان سيتخلص من وسم "سوء الخلق" ودمامة الوجه، كما تخلص منها غيره من الصحابة الذين كانوا في الجاهلية يعانون من العنصرية والوسوم السلبية. فالدين الجديد يرفض السخرية من المؤمنين والتنازع بالألقاب بينهم، ويتوعد المسيئين للناس بحسب خلقهم الذي صوّره في الله عزّ وجلّ.

فإظهار الإيمان من رجل، هو بكلّ هذا الجشع، وحده كان سيضمن له وضعاً اجتماعياً هنيئاً يقيه ألسنة معاصريه وأقلام أجيال الدارسين بعده. لكن الحطيئة اختار الخيار الأصعب، وهو المكوث على ديدنه

1- المرجع نفسه، 1/131.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

القديم، والتّمسك بمنظومة ثقافية مهددة بالانهيار، والدفاع عن مدرسة شعرية كانت آيلة إلى السقوط، والالتزام بمعايير نقدية أساسها التّكثيف والتّجويد، لم تعد تجد مكانها الأثيرية بين القوم.

وإذا كان مفيد قميحة، وهو يقدم لشعر الحطيئة، ينوّه بموهبته الشعرية ومقاومته وصموده، كما نوّه بذلك طه حسين قبل؛ وهو يؤكّد "أن الرجل كان يتمتع بشخصية قوية، وإرادة صلبة وموهبة فذة، كما تظهر قدرته على المقاومة والصمود والانتصار"¹؛ فإنه كذلك جعل كلّ ذلك موقفا شخصيا؛ ففي رأيه "ارتضى أن يظلّ بعيدا عن الانخراط في العقيدة الإسلامية التي تلزم معتنقيها سلوكا أخلاقيا يتنافى مع سلوكه الذي أوتر عنه... ولم يستطع أن يكون كصاحبيه كعب بن زهير، ولبيد بن أبي ربيعة"². وعندي أن التزام الشاعر إنّما كان بقضية الشعر وأنساقه الثقافية وقيمه الجمالية وهو ما يظهره شعره كما تظهره التّقلبات التاريخية والاجتماعية التي تفاعل معها. وقد عانى ما عاناه بسبب هذا الالتزام وهذه القضية التي لم يفارقها يوما في حياته. وقد أرق الرواة أنفسهم لإيراد أبيات قليلة تظهر موقفا مخالفا للدين الجديد، لأن الشعر يستعصي عن حمل تلك الأحكام التي حملتها الروايات هنا وهناك، وهي من قبيل تلك الأبيات التي يوردونها صكوك اتهام للرجل في دينه وعرضه وعقوقه لأبيه وأمه، ونفوره من إخوته وزوجه؛ وإلا فإن الشعر ذا النفس التقصيدي لم يحمل موقفا مباشرا من الدين الجديد ومن الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين. لأن الرجل كانت له معاركه الخاصة التي يستفرغ فيها جهده، بعيدا عن قضية الإيمان والكفر التي يجره الرواة إلى دائرتها جرّا.

كل ذلك وغيره يدفعنا إلى الجزم بأن مشكلة الحطيئة ليست مشكلة فردية بل مشكلة ثقافية، وقضيته ليست قضية شخصية بل قضية مدرسة شعرية ومذهب فني وتوجه نقدي. مما جعله يجسد بكل شفافية ذلك المثقف الذي يلتزم بقضية. ولم تكن أوصاف "رقة الدين" أو "الردة" أو "سوء الخلق" وغيرها إلا أسلحة حادة ووجه بها الحطيئة من قبل خصومه الثقافيين والشعريين بهدف الرمي به في أتون التهميش والإقصاء. لكنه واجه كل ذلك بالمقاومة ومناجزة خصومه في معركة تلوى أخرى إلى أن استطاع أداء رسالته الثقافية والشعرية، واستطاع أن يوصل النفس الشعري الجاهلي ذا المظهر الثقافي والفني العربي الخالص إلى الأجيال الجديدة من الشعراء الذين حملوا رسالة "عبيد الشعر" وذهبوا بها مذاهب متقدمة جدا.

لقد ظل الحطيئة ومعاركه بعيدا عن التحليل الموضوعي المنصف، وظل انصراف شعراء الجاهلية عن قول الشعر بعد مجيء الإسلام بعيدا عن النّظر النقدي الحصيف، وظلت دراسة التفاعلات الثقافية والشعرية في القرن الأول والثاني للهجرة سطحية ومُوجّهة وغير سديدة، معظمها ينظر بمنظورات بعيدة عن الموضوعية العلمية وروح الثقافة وجوهر الشعر.

1- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، دراسة وتبويب: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، (مقدمة د. مفيد قميحة)، ص: 17.

2- المرجع نفسه، ص: 18.

5- الذاكرة في مواجهة النسيان:

إن أهم ما سينصرف إليه هذا التحليل هو تلك التفاعلات التي تحدث في مساحات التماس والمواجهة، واستراتيجيات كل طرف في ترسيخ ثقافته وسلطته، والتمكين لمذهبه وأسلوبه (بالمفهوم الفوكوي)، حيث يمكن النظر إلى السلطة باعتبارها علاقات تبادلية بين أطراف متعددة؛ "تعمل على تسهيل كل من التمكين الجماعي والانضباط الاجتماعي"¹، يمارس خلالها "المركز" أو "الأساسي" سلطاته التي يكتسبها من الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والرمزية، بينما ينزع "الهامشي" إلى المقاومة وإثبات الوجود والمحافظة على الاختلاف وانتزاع الاعتراف. ونستفيد هنا من تطور فكرة المركز والهامش كثيرا؛ "لخلق طرق جديدة لفهم اللغة والسلطة... فأن يكون المرء هامشيا يعني امتلاك سلطة أقل، وأن يكون على مسافة بعيدة من مركز السلطة"². وهو ما وجد الحطيئة نفسه خلاله، وهو يتموقع على حافة المجتمع الثقافي الجديد، وعلى هامش القوانين الشعرية والنقدية المستحدثة؛ فصار يُنظر إليه بوصفه تهديدا لكل هذه المنظومات المتبلورة، والبنى الفكرية التي عُقد عليها الإجماع... وهو وضع كوني دائر في كل المجتمعات الإنسانية. وإن كان الحطيئة قد وجد نفسه في هذا الوضع غريبا وحيدا؛ فالهامش دوماً "ليس سوى بقايا غير مجدية ومخلفات تجاوزها الزمن، و"صمت" يقع تعهده بعناية أو هو مجرد صوت مكتوم"³، وعادة ما "يتم تعريف الهامشين بالنسبة إلى المجتمع المهيمن بصورة سلبية؛ إنهم ممن ليس لهم مقر دائم... يوجدون في كل مكان.. ممن ليس له اعتراف.. وممن لا يصلح للدنيا"⁴. وضمن هذا الأفق الكوني ننظر لشعر الحطيئة والأنساق الثقافية التي ينبني من خلالها، والتي ليست غير الأنساق الثقافية التي انبنى من خلالها الشعر العربي في أصوله الأولى ومنابعه الأصلية.

فإذا كان الشعر ديوان العرب ومناطق إبداعهم، فإن المدح أصل الشعر العربي ومدار باقي أغراضه. وهو ما جعل ابن قتيبة "ينظر إلى قصيدة المدح دون غيرها، وقدامة يرى أن معاني الهجاء والثناء ليست إلا فروعاً عن غرض واحد أصلي هو المديح"⁵. وتنبّع قصيدة المدح ينبئ عن بعد قيمي أصيل تنضح به بنيتها النمطية المكرسة. وقد درس أبو حاق المديح فانتهى إلى أنه "مدرسة أخلاقية". واستقرأ قدامة الشعر العربي قديماً فألفى أن صفات المدح الدائرة فيه هي "فضائل الإنسان على الحقيقة"⁶، وهي عند ابن طباطبا "خلال" مشهورة مما "وجدته العرب في أخلاقها، ومدحت به سواها، وذمت من كان على ضدّ حاله فيه"⁷؛

1- طوني بينيت وآخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة، ص 244.

2- المرجع نفسه، ص 698.

3- جان كلود شبيث، تاريخ الهامشين، ضمن "التاريخ الجديد"، إشراف: جاك لوغوف، ترجمة: محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العالمية للترجمة، بيروت، ط 1، 2007، ص 436.

4- المرجع نفسه، ص 698.

5- محمد الدناي، نظرية الشعر لدى أبي العلاء المعري بين التصور والإنجاز، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، ظهر المهراز، فاس، 1999-2000، 277/3.

6- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 95.

7- ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1982، ص 18.

وهي العفة، والعدل، والشجاعة، والعقل، وهي بمثابة الأصول التي تتفرع عنها الأجزاء المكونة لها، من قبيل: ثقافة المعرفة، والحياء، والبيان، والسياسة، والكفاية، والصّدع بالحجة، والعلم، والحلم، والقناعة، وقلة الشره، وطهارة الإزار، والحماية، والدفاع، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدو، والمهابة، وقتل الأقران، والسماحة، والانظلام، والتبرع بالنائل، وإجابة السائل، وقرى الأضياف... وجارى ابن رشيّق غيره من النقاد في أنه "أكثر ما يعول على الفضائل النفسية"¹ في المدح، إلّا أنه يجيز خلافهم للشاعر أن يستدعي "فضائل عرضية جسمية كالجمال والأبهة، وبسطة الخلق وسعة الدنيا وكثرة العشيرة"²، مما يتوافق والتغيرات الاجتماعية التي عرفتها طبيعة الحياة العربية...

لقد كانت هذه هي المراتف الآمنة التي تشكّلت في العصر الجاهلي، وظلّت تضمن للشعراء التجويد في سائر العصور اللاحقة، ويعملون من داخلها على نسج شبكة معانيهم، وبناء أنموذج متداول للإنسان الكامل الذي تبلور في قصائدهم؛ ذلك لأنّ "الشاعر الجاهلي كان يقول، إجمالاً، ما يعرفه السامع مسبقاً، كان يقول عاداته وتقاليده، حروبه ومآثره، انتصاراته وانهزاماته"³. فقد كانت هذه المعاني والأفكار بنيات دلالية وفكرية أنتجت ثقافة سارية بين الناس مشتركة بين عمومهم وخصوصهم؛ فعمل الشاعر بما أوتي من قدرة إبداعية على الصياغة الفنية لها. لأنّ الشاعر كان دائماً متماهياً مع أخلاق الجماعة، معبراً بلسانها، ممثلاً لثقافتها وقيمتها؛ "فالشعر الجاهلي يمثل أدباً موروثاً مأثوراً، نصيب الفرد فيه أقل بكثير من نصيب الجماعة"⁴. وهو الدور الذي ظلّ الحطيئة وفيّاً له قبل الإسلام وبعده. غير أن وفاءه لهذا النهج قبل الإسلام كان متأثرة وفضيلة تستدعي التقدير والتوقير، ووفاءه له بعد الإسلام صار منقصة ورذيلة تستدعي السخرية والتحقير.

وقد ثبت في نصوص كثيرة أن الحطيئة كان منافحاً عن الأخلاق العربية، محافظاً على المروءة، داعياً لها في شعره. فقد نقل أنّه قد طُلب منه في مجلس النعمان بن المنذر هجاء أوس بن حارثة مقابل ثلاثمائة ناقة، فقال الحطيئة: كيف أهجو رجلاً لا أرى في بيتي أثاثاً ولا مالا إلا من عنده؟ ثم قال:

كَيْفَ الْهَجَاءُ وَمَا تَنْفُكُ صَالِحَةً مِنْ آلٍ لَأُمِّ بَظْهَرِ الْغَيْبِ تَأْتِينِي... (الأبيات)⁵

فلا ينقلب المدح هجاء لطمع، ويظلّ الوفاء سيّد المدح، والمروءة في مقدمة الأخلاق العربية. ولا يُستلّ سيفُ الهجاء إلا بعد أن تُستنفذ محاولات الودّ وإصلاح ذات البين.

ولأمر ما لا يتحدث الرواة كثيراً عن حوار جاد دار بين الحطيئة وابن عباس يبرز أن الرجل لم يكن خلواً من كلّ الخير؛ ويتضمن شهادة مهمة من ابن عباس في الحطيئة، في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم:

1- ابن رشيّق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 2/135.

2- المصدر نفسه، 2/135.

3- أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط 2، 1989، ص 6.

4- عبد المنعم خضر الزبيدي، مقدمة لدراسة الشعر الجاهلي، منشورات جامعة قاريونس، ليبيا، 1980، ص 283.

5- ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت والسكري والسجستاني، تحقيق: نعمان أمين طه، مكتبة مصطفى الحلبي، مصر، ط 1، 1985، ص 86.

"لله أنت أي مردى قذاف وذائد عن عشيرة ومثن بعارفة تؤتاها، أنت يا أبا مليكة والله لو كنت عركت بجنبك بعض ما كرهت من أمر الزبرقان كان خيرا لك ولقد ظلمت من قومه من لم يظلمك وشتمت من لم يشتمك."¹

ومن تناقضات الرواة كذلك أنهم يوردون قوله:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ *** لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

ويرون أنه أصدق بيت قالته العرب. رغم أن هذا البيت جاء في حزمة أبيات في هجاء الزبرقان بن بدر نال بسببها الحطيئة عقاب الخليفة عمر رضي الله عنه، وسخط الرواة والنقاد. بل إنهم يقدمون هذا البيت دليلا على ثقافة الحطيئة الدينية الراسخة قبل الإسلام. بل وذكروا أن البيت "أخذه الحطيئة من بعض الكتب القديمة، يقول الله تعالى فيما أنزل على داود عليه السلام: من يفعل الخير يجده عندي، لا يذهب العرف بيني وبين عبدي"².

مما يدل على أن الحطيئة ظل منغمسا في ثقافة عصره، متماهيا معها. وظل شعره معبرا على هذه القيم العربية الأصيلة التي تعاورها الشعراء ورددها النقاد فيما بعد. فمدح بالكرم والشجاعة والمجد والحلم، وأثنى على حماية الجار وبراءة العرض، والأمانة، وذمّ البخل والجبن والخيانة، مما نرى نماذج كثيرة له في شعره؛ نذكر منها هذه الأبيات من قصائد مختلفة:

- فَتَى لَا يُضَامُ الدَّهْرَ مَا عَاشَ جَارُهُ *** وَلَيْسَ لِإِدْمَانِ الْقِرَى بِمَلُولٍ
- وَأَشْجَعُ فِي الْهَيْجَاءِ مِنْ لَيْثٍ غَايَةٍ *** إِذَا مُسْتَبَاةٌ لَمْ تَثِقْ بِحَلِيلٍ
- فَإِنْ عُدَّ مَجْدُ فَاضِلٍ عُدَّ مِثْلُهُ *** وَإِنْ أَثَلُّوا لِقَاهُمْ بِأَثِيلٍ³
- هُمْ صَنَعَ لَجَارِهِمْ وَلَيْسَتْ *** يَدُ الْخَرْقَاءِ مِثْلُ يَدِ الصَّنَاعِ
- وَيَحْرُمُ سِرُّ جَارِهِمْ عَلَيَّ *** وَيَأْكُلُ جَارُهُمْ أَنْفَ الْقِصَاعِ
- وَجَارُهُمْ إِذَا مَا حَلَّ فِيهِمْ *** عَلَى أَكْنَافِ رَابِيَةِ يَفَاعٍ⁴
- يَرَى الْبَخْلَ لَا يَبْقَى عَلَى الْمَرْءِ مَالُهُ *** وَيَعْلَمُ أَنَّ الشَّحَّ غَيْرُ مَخْلَدٍ
- مَتَى تَأْتِيهِ نَعَشُوشُ إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ *** تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدٍ⁵

وهي نماذج كثيرة، وفي سياقات مختلفة؛ تبدي أن الحطيئة كان في مركز الأخلاق العربية، ظل وفيها للذاكرة الشعرية الجمعية وحفظ هويتها الفنية من خلال حفظ بنيات القصيد وأغراضه.

1- الأصفهاني، الأغاني، 125/2.

2- ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، 154/1.

3- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، ص 144-145.

4- ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت والسكري والسجستاني، ص 62.

5- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، ص 70.

ومن أجمل قصائده وأجودها، وأكثرها تحملا للقيم الثقافية والنقدية التي ظل الحطيئة يؤسس لها ويدعو إليها كل حياته، قصيدته في مدح بغيض، والتي مطلعها:¹

آثرتُ إدلاجي على ليلِ حُرَّةٍ *** هَضِيمِ الحَشَا حُسَانَةَ الْمُتَجَرَّدِ.

إذا النَوْمُ أَلْهَاهَا عَنِ الزَّادِ خِلَتَهَا *** بُعِيدَ الْكَرَى بَاتَتْ عَلَى طَيِّ مُجَسَّدِ

ثم يقول مادحا:

كَسُوبٌ وَمِثْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ *** تَهَلَّلَ وَاهْتَرَّ اهْتِرَّازَ الْمُهَنْدِ

مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُّوْ إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ *** تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدِ

تَزُورُ أَمْرًا إِنْ يُعْطِكَ الْيَوْمَ نَائِلًا *** بِكَفِّيهِ لَا يَمْنَعُكَ مِنْ نَائِلِ الْغَدِ

وحين استمر على هذا المنحى اشتد العداء له وزادت حدة التهميش نحوه. لما صار الدين الجديد مقصد العرب الأول، والقيم المستجدة هي المبتغى والملاذ الذي يحقق الحظوة والمكانة الاجتماعية للشعراء. فززع القرآن الشعر عن عرش البلاغة الفنية والنجاعة الثقافية، وصار الشعر يفقد جمهوره ومكانته وفعاليته يوما بعد يوم. أو على الأقل يأتي في مكانة تالية لمكانة القرآن؛ فزُعِزَت ثقة العرب في ديوانهم الأول، وفقد الشعراء جرأ ذلك مكانتهم السابقة في اعتلاء صهوة الخطاب. فأقبل بعضهم يلبسون قولهم الشعري لبوس أخلاق الدين الجديد، وسكت آخرون ينصتون إلى القرآن ويكتشفون خطابه الجديد والمختلف.

فيرصد ابن خلدون هذه الظاهرة حين يقول: "ثم انصرف العرب عن ذلك (أي عن الشعر) أول الإسلام، بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا"². غير أن الحطيئة لم ينصرف انصراف غيره من الشعراء، ولم ينشغل بما انشغل به القوم، وظل مهموما بقضايا الشعر والثقافة، حريصا على العبور الآمن نحو الأجيال الجديدة. فطفق يمدح من يراه أهلا للمدح، ويُعَرِّضُ بمن يجهل عليه أو لا يبدي برورا به وتقديرا لشعره. فكان يمثل الموقف الذي يسعى إلى الاحتفاظ بوعي يراه ينهار أمامه، ويقاوم سلطة مجهزة بأعظم استراتيجيات الفعل والتغيير. مركزا على ابتعاث القيم الشعرية العربية الأصيلة والاستمساك بأنويتها الدلالية، والتّمكن لمعانيتها في مضمار الشعر ومضامير الحياة.

وهو في كل ذلك ذو موقف يختلف عن موقف لبيد بن ربيعة وكعب بن زهير؛ فقد أوردت المصادر المختلفة "أن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم"³، وهو واقع يصدقه شعر لبيد الذي وصلنا، والذي يعود جلّ شعره إلى ما قبل إسلامه. كما تنسب المصادر حوار لبيد الدال والعميق مع الخليفة عمر رضي الله عنه بعد أن استنشده شعرا مما قاله في الإسلام، فقال: "ما كنت لأقول شعرا بعد أن علمني الله سورة البقرة وآل

1- تنظر القصيدة وشرحها، في ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت والسكري والسجستاني، ص 147-161.

2- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط3، 1323/3.

3- ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الفكر، 2006، 198/2.

عمران¹. وهو رد بليغ دال على أن المقصد صار هو القرآن، وهو البديل الذي ملأ النفوس والجنان فصارت فارغة من الشعر غير آبهة بقضاياه. أما كعب بن زهير فقد ذكر ابن سلام وغيره أن الحطيئة خاطبه قائلاً: "قد علمت روايتي شعر أهل البيت وانقطاعي، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً، فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع. فقال كعب:

فَمَنْ لِلْقَوافي شائها مَنْ يَحوِّكها*** إذا ما ثوى كَعْبٌ وَفَوَّزَ جَرُولُ
يَقُولُ فلا يَعيا بِشيءٍ يَقُولُهُ*** وَمِنْ قائلها مَنْ يُسيءُ وَيَعْمَلُ
كفيتك لا تلقى مِنَ النَّاسِ واحداً*** تنخَّلَ منها مثل ما يتنخَّلُ
يُثقفها حتى تَلين متوئها*** فيقصر عنها كلُّ ما يُتمثَّلُ²

ولا يبدو أن الحطيئة في هذه الرواية يدافع عن مكانته الخاصة، كما أراد أن يفهمنا صاحب الأغاني، أو من ينقل عنهم، حين قدّم للأبيات بقوله: "فبلغ من دناءة نفسه أنه أتى كعب بن زهير..."³: بقدر ما يدافع عن الثقافة الشعريّة العربيّة، وفي المركز منها مدرسة "عبيد الشعر" التي نهض بها من يسميهم الحطيئة "أهل البيت"، أي أهل بيت زهير بن أبي سلمى. فيستند الحطيئة إلى هذا النسب الشعري الأثيل، وإلى فحولة الحطيئة وكعب، يستعين بهما في "معركة" المحافظة على الإرث الشعري العربي الأصيل الأيل للنسيان. ويستحث كعباً على المشاركة في معركة المحافظة هذه، وعلى الدفاع عن مدرسة زهير الذي هو أحد فحولها. لما رأى الحطيئة توارى كعب عن الساحة الشعرية، وضموره عن المعركة الثقافية التي يخوضها الحطيئة مفرداً. فرد كعب بهذه الأبيات القليلة التي يتناقلها الرواة جيلاً بعد جيل، وهو يتحسر على الوضع المجهول الذي ستصير إليه بنايات القصيد بعد افتقاد جرول بن أوس وكعب بن زهير؛ بما يتميزان به من "تنخل" القصائد وثقيفها، فلا يداني قولهما ولا يضاهي؛ يثقفان الشعر؛ "يحاولونه، ويزاولونه ويدبرونه في عقولهم، ثم يدبرونه فيما بينهم، ثم لا يذيعونه في الناس حتى يرضوا عنه ويطمئنوا إليه"⁴. وهي شهادة كان الحطيئة في حاجة إليها من سليل أهل البيت ليواجه هذا الواقع الشعري المترهل، وهذا التهميش للقول الشعري المنخل المثقف الذي يميز مدرسة عبيد الشعر التي ينتهي إليها الشاعران.

هي وثيقة يتسلح بها الحطيئة في هذه المعركة الشعرية، لما علم أنهم لا يخلطون على كعب ما يخلطون عليه، ولا يكذبون عليه كذبهم عليه، وكلامه أوثق وأسير؛ لأصالة نسبه من زهير وآل بيته، ولدنوّ مكانته من الرسول صلى الله عليه وسلم ومجتمع الصحابة. لقد كان الحطيئة في الخطوط الأولى لمواجهة ثقافيّة غير متكافئة، وعانى كثيراً دفاعاً عن مذهبه وأفكاره ومواقفه. بينما رأى لبّيد وكعب أن ينسحبوا من ساحة الشعر ويفرغوا من أسئلته المقلقة وقضاياه المؤرقة. لما علما بخبرتهما الطويلة في مقارعة الأشعار، وحدهما الفني

1- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 275-276.

2- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، 105/1.

3- الأصفهاني، الأغاني، 107/2.

4- طه حسين، حديث الأربعاء، 139/1.

المتمكن "أنّ التجويد إنما هو ديدن القيم المنمّطة شعريا، وطريقة شعر الفحول من فطاحل المتقدمين، وإن التعبير عن الأخلاق الإسلامية جماليا بالقرآن في سورة البقرة وآل عمران أولى من التعبير عنها بالشعر، لما يحفّ عملية قرض الشعر من مخاطر البدايات وانزلاقات نحت مذاهب شعرية جديدة مما أتعّب وأنّهم المجودين من الشعراء"¹، وفي مقدمتهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك.

إن انصراف الحطيئة ولبيد وكعب وغيرهم عن الدفاع عن القيم الجديدة، وإلباس شعرهم لبوسا ثقافيا مستجدا، هو موقف نقدي خالص، وبدون شك إنه لم يكن موقفا عقديا من الدين الجديد، بل كان موقفا فنيا يربط التجويد بالثقافة العربية الأصيلة، قليل منها أقره الدين الجديد وكثير منها أنكره وعارضه. غير أن الحطيئة لم يكتف بالانصراف بل جعل يقول الشعر كما كان يقوله من قبل، واصطفّ إلى جانب الثقافة العربية التي أضحت توصف بالجاهلية، مدافعا عن قناعاته الثقافية يعززها شعريا بالمدح والثناء عطاء أو وفاء، وبالهجاء تأديبا وتهديبا وأحيانا وفاء وحمية، وكل ذلك من وسائل الجزاء والعقاب المنغرس في الوجدان الشعري الإنساني في كل زمان ومكان.

فوصف جرّاء ذلك بأقذع الأوصاف وهوجم في نسبه ودينه وخلقه وخلقته، وسجن لما استمسك بالهجاء بالطريقة الفنية التي يراها مناسبة. ورمي بالإغراب والفجاجة، والتعلق بأخلاق عفا عنها الزمان، وحيل بينه وبين جمهوره بروايات أقرب إلى الأساطير المختلفة، وهو أقسى ما يمكن أن تقذف به ثقافة أو يوصف به مثقف. ولم يشفع له حفظه لثقافة كان من أعلم الناس بها، ولا كونه آخر الفحول، ولا متانة شعره وشروء قافيته مما أجمع عليه النقاد المنصفون. لكنّ الحطيئة واجه كل ذلك بصلاية غريبة حتى أوصل رسالة الشعر وثقافة العرب إلى الأجيال اللاحقة، حتى رأينا الفرزدق وجميل وكثير وكائنهم انبعثوا من صلبه، يرجعون للشعر ألقه وقوّته وجماله وجمهوره. لكن هذه المرحلة كانت دونها صعوبات جمة وتحديات كبيرة واجهها الحطيئة بصمود وصلابة، ثقافيا وشعريا ونقديا.

6- الأهجي؛ الأصدق:

من الوقائع التي جعلت الحطيئة في مواجهة مباشرة مع نسق السلطة المتمكن، بكل مكونات هذا النسق السياسية والاجتماعية والشعرية، ما وقع له مع الزبرقان بن بدر، ولعلها كانت الواقعة التي جرّت على الحطيئة الكثير من الانتقاد وجعلته في مواجهة أجيال من المعارضين والأعداء أحيانا. فقد كان الزبرقان بن بدر التميمي "سيدا في الجاهلية عظيم القدر في الإسلام"²، ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم صدقات قومه، فأذاها في الردة إلى أبي بكر فأقره، ثم إلى عمر بن الخطاب. وإمعانا في توريط الحطيئة تذكر بعض الروايات أن الزبرقان كان "قد سار إلى عمر بصدقات قومه فلقية الحطيئة ومعه أهله وأولاده... فأمره الزبرقان أن

1- عبد الفتاح شهيد، الاشتغال الجمالي للمعنى الأخلاقي، دار الحامد، الأردن، ط1، 2015، ص65-66.

2- ابن الأثير، اسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، 2016، 304/2.

يقصد أهله، وأعطاه أمانة يكون بها ضيفا له حتى يلحق به ففعل الحطيئة¹. فظهرت للحطيئة من زوجة الزبرقان جفوة، "فاغتنم بغيض وأخواه، علقمة وهؤذة، ما فيه الحطيئة من الجفوة، فدعواه إلى ما عندهما، فأسرع. فبنوا عليه قبة، ونحروا له، وأكرموا كل الإكرام..."². وكان بغيض وأخواه من أعداء الزبرقان؛ فقال الحطيئة يمدح بغیضا ويهجو الزبرقان:³

وَاللَّهِ مَا مَعَشَرُ لَامُوا امْرُؤًا جُنُبًا *** فِي آلِ لَأَيِّ بْنِ شَمَّاسٍ بِأَكْيَاسٍ
عَلَامَ كَلَّفَتْنِي مَجْدَ ابْنِ عَمِّكُمْ *** وَالْعِيسُ تَخْرُجُ مِنْ أَعْلَامِ أَوْطَاسٍ
مَا كَانَ ذَنْبُ بَغِيضٍ لَا أَبَا لَكُمْ *** فِي بَائِسٍ جَاءَ يَحْدُو آخِرَ النَّاسِ
لَقَدْ مَرَيْتُكُمْ لَوْ أَنَّ دَرَيْتُكُمْ *** يَوْمًا يَجِيءُ بِهَا مَسْحِي وَإِبْسَاسِي
وَقَدْ مَدَحْتُكُمْ عَمْدًا لِرُشْدِكُمْ *** كَيْمَا يَكُونُ لَكُمْ مَتَحِي وَإِمْرَاسِي
وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ إِعْشَاءَ صَادِرَةٍ *** لِلْخَمْسِ طَالَ بِهَا حَوْزِي وَتَنْسَاسِي
فَمَا مَلَكْتُ بِأَنَّ كَانَتْ نَفْسُكُمْ *** كَفَارِكِ كَرِهَتْ ثَوْبِي وَالْبَاسِي
حَتَّى إِذَا مَا بَدَأَ لِي غَيْبُ أَنْفُسِكُمْ *** وَلَمْ يَكُنْ لِي جِرَاحِي فَيْكُمْ أَسِي
أَزْمَعْتُ يَأْسًا مُبِينًا مِنْ نَوَالِكُمْ *** وَلَنْ تَرَى طَارِدًا لِلْحَرِّ كَالْيَاسِ
مَا كَانَ ذَنْبُ بَغِيضٍ أَنْ رَأَى رَجُلًا *** ذَا فَاقَةٍ عَاشَ فِي مُسْتَوَعٍ شَاسِ
جَارًا لِقَوْمٍ أَطَالُوا هَوْنَ مَنْزِلِهِ *** وَغَادَرُوهُ مُقِيمًا بَيْنَ أَرْمَاسِ
مَلَّوْا قِرَاهُ وَهَرَّتْهُ كِلَابُهُمْ *** وَجَرَّحُوهُ بِأَنْيَابٍ وَأَضْرَاسِ
سِيرِي أُمَامَ أَوْلَاكِ الْأَكْثَرُونَ حَصَى *** وَالْأَكْرَمُونَ أَبَا مِنْ آلِ شَمَّاسِ
دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا *** وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
وَابْعَثْ يَسَارًا إِلَى وَفْرِ مُدَمَّمَةٍ *** وَاحِدِجَ عَلَمِهَا بِذِي عَرَكَيْنِ قِنْعَاسِ
مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ *** لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
مَا كَانَ ذَنْبِي أَنْ فَلَّتْ مَعَاوِلُكُمْ *** مِنْ آلِ لَأَيِّ صَفَاءَ أَصْلُهَا رَاسِي
قَدْ نَاضَلُوكَ فَسَلُّوا مِنْ كِنَانَتِهِمْ *** مَجْدًا تَلِيدًا وَنَبْلًا غَيْرَ أَنْكَاسِ

"فاستعدى عليه الزبرقان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأنشده آخر الأبيات، فقال له عمر: ما أعلمه هجاءك، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا؟! قال: إنه لا يكون في الهجاء أشد من هذا، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فسأله عن ذلك، فقال: لم يهجه ولكن سلح عليه، فحبسه عمر، وقال: يا خبيث لأشغلنك عن أعراض

1- ابن الأثير، أسد الغابة، 304/2.

2- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، 116/1.

3- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، ص 118-120.

المسلمين¹، وعند ابن سلام: "فقال عمر لحسان: ما تقول؟ أهجاه؟ وعمر يعلم من ذلك ما يعلم حسان، ولكنه أراد الحجة على الحطيئة، قال: ذرق عليه! فألقاه عمر في حفرة اتخذها محبسا"²؛ ومن الرواة من يحرص على جعل هذا المحبس ممعنا في الإهانة: "فجعل في نقيز في بئر، ثم ألقى عليه حَفَصُهُ"³. فأنشد من محبسه قائلا⁴:

ماذا تقولُ لأفراخِ بذي مَخٍ *** حُمِرِ الحَوَاصِلُ لا ماءً ولا شَجَرُ
غَيَّبَتْ كاسِهمُ في قَعَرِ مُظْلِمَةٍ *** فَأَغْفِرْ عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ يا عُمَرُ
أَنْتَ الْأَمِينُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صاحِبِهِ *** أُلْقَتْ إِلَيْكَ مَقَالِيدَ النُّهى البَشَرُ
لَمْ يُوْثِرُوكَ بِها إِذْ قَدَّمَوكَ لَها *** لَكِنْ لِنَفْسِهِمْ كَانَتْ بِها الْأَثَرُ
فَأَمْنُنْ عَلَى صَبِيَّةٍ بِالرَّمْلِ مَسْكُونُهمُ *** بَيْنَ الْأَبْاطِحِ يَغْشَاهُمْ بِها الْقَرَرُ
أَهْلِي فِدَاؤُكَ كَمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمُ *** مِنْ عَرَضِ ذَاوِيَّةٍ يُفَنِّي بِها الْخَبَرُ

ف قيل إنه بعد أن قال هذه الأبيات: "رقّ له عمر وخلص سبيله، وأخذ عليه ألا يهجو أحدا من المسلمين"⁵، لكن بعض كتب الأدب تقدم "إخلاء السبيل" هذا تقديمًا دراماتيكيًا مربعًا؛ فتتابع بعض الروايات: "فبكى عمر ثم قال: عليّ بالكرسي، فجلس عليه، وقال: أشيروا عليّ في الشاعر، فإنه يقول الهجو، ويشبب بالنساء، وينسب بما ليس فيهم ويذمهم، ما أراني إلا قاطعا لسانه! ثم قال: عليّ بطست، ثم قال: عليّ بالمخصف، علي بالسكين، بل علي بالموسى! فقالوا: لا يعود يا أمير المؤمنين. وروى عبدالله بن المبارك، أن عمر رضي الله عنه لما أطلق الحطيئة أراد أن يؤكد عليه الحجة، فاشترى منه أعراض المسلمين جميعا بثلاثة آلاف درهم"⁶.

فنحن هاهنا أمام واقعة ثقافية متشابكة الأدوات والوقائع، متواشجة وسائل التعبير والتغيير. تنضح بقيم الفن والثقافة والحياة، تتصادم خلالها الرموز والمعاني والحقائق والمجازات، ويستخدم في بوتقتها الاختلاف بين نهجين ثقافيين واختيارين شعريين ونقديين. فبين الاحتفاء والإقصاء، وبين الاقتراب والاعتراب، تمتد المواجهة والمحااجة؛ لتسفر عن بوح شعري يأبى الكتمان، وعن ذاكرة شعرية تأبى النسيان.

فيبدأ الصّراع من الاسم، والاسم لعبة مجازيّة ولسانيّة وسيميائية، تُترجم إلى قيم ثقافية متداولة تعكس بحثا عن شرعية الانتماء والتّحديد والموضوعة. فيلاحق التهميش الحطيئة بدءا بلقبه الذي أمعن الرواة واللغويون في إضفاء معانٍ حقيرة عليه من خلاله. "فقيل: لقب بذلك لقصره وقربه من الأرض، وفي

1- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص: 328.

2- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، 1/ 116.

3- عمر بن شبة النيري، تاريخ المدينة المنورة، علق عليه وخَرَجَ أحاديثه: علي محمد دندل، ياسين سعد الدين بيان، دار الكتب العلمية، بيروت، 187-186/3، والحَفَصُ: زبل من جلود، وقيل زبيل صغير من آدم تُتَقَى به الآبار.

4- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، 107-108.

5- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص: 328.

6- عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، 3/ 295.

الصباح: الحطيئة الرجل القصير، قال ثعلب: وسمي بالحطيئة لدمايته، وقيل: لأنه ضرب بين قوم، فقيل له: ما هذا؟ فقال: حطيئة؛ يقال: خطأ: إذا ضرب، وقيل: لأنه كان محطوء الرجل، والرجل المحطوءة: التي لا أخص فيها¹. فبين القرب من الأرض والقصر والدماية والضراط والرجل المحطوءة؛ تمتد معاني لقب "الحطيئة" المغرقة في السلبية، والتي تتسرب إلى الأسماع والنفوس منذ اللقاء الأول معه. وفي المقابل فالزبرقان القمر، وليلة الزبرقان ليلة البدر، "وإنما قيل له الزبرقان لحسنه، والزبرقان القمر، وقيل: إنما قيل له ذلك، لأنه لبس عمامة مزربة بالزعفران وقيل: كان اسمه القمر... وكان يقال للزبرقان: قمر نجد لجماله، وكان ممن يدخل مكة متعمما لحسنه؛ فسواء أكان الحسن أصليا أم مجتلبا، فقد أحيط الزبرقان بمعاني الحسن والوضاءة وأحيط الحطيئة بمعاني السوء والدماية؛ فنعم الأول في معاني الإيجابية والاقتراب ونبد الثاني في معاني السلبية والاغتراب، وتلك كانت المواجهة الأولى.

وبعد معركة اللقب غير المتكافئة، يشتد الخناق على الحطيئة من زاوية أخرى، تحظى بمكانة محورية في المجتمعات العربية، وهي الأصل والنسب. فيوصف الحطيئة بأن نسبه متدافع بين القبائل، فتارة ينسب إلى بني ذهل، وتارة إلى بني قضيعة، وتارة إلى بكر بن وائل، ولا ندري عن أي شرف يتحدث ابن الكلبي حين يقول عنه: "وكان من أولاد الزنا الذين شرفوا"؛ لأن وضاعة الأصل واختلاط النسب ظلا وسمين يلاحقان الحطيئة في حياته وبعد وفاته، دون أن تشفع له جودة شعره في التخلص منهما. وفي المقابل كان الزبرقان بن بدر بن امرئ القيس التميمي "سيدا في الجاهلية عظيم القدر في الإسلام"، مطاعا في قومه مانعا لما وراء ظهره "أحد رؤساء تميم المشهورين... أما قبيلته تميم فهي من أمنع القبائل العربية جانبا، وبيته يحتل الصدارة بينها"². ولأه الرسول صلى الله عليه وسلم صدقات قومه، واستخلفه عليها أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. فإذا كان الحطيئة مختلط النسب لا يُعرف له أصل واضح؛ فإن الزبرقان كان عريق النسب، سيذا من سادات تميم؛ وهو ما تفنن الرواة في التعبير عنه والتأسيس من خلاله لمقارنات خفية، لكنها مؤثرة، فاعلة في نفوس متتبعي هذه الوقائع وقراء هذه الأشعار، وتلك كانت المواجهة الثانية.

ويشتد الخناق أكثر على الحطيئة حين وصف بسوء الدين، فذكروا أنه «كان أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ارتد، ثم أسر وعاد إلى الإسلام»³، ويقول ابن قتيبة: "ولا أراه أسلم إلا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنني لم أسمع له ذكرا فيمن وفد عليه من وفود العرب... وكيف ما كان فإنه كان رقيق الإسلام، لئيم الطبع"⁴. مخالفا لأخلاق دين التوحيد، ونسبوا إليه وصية يخالف فيها أصول الإسلام وتوجيهاته في الإرث والرافة باليتامى والمساكين، ويطلب خلالها قراءة الشعر أثناء وفاته بعض وضعه على ظهر أتان. فتنبجس صورة بشعة لرجل سيء الدين على امتداد حياته وعلى مشارف موته. بينما برهن

1- البغدادي، خزانة الأدب، 406/2

2- سعود محمود عبد الجابر، شعر الزبرقان بن بدر وعمر بن الأدهم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984، ص10.

3- ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995، 150/2.

4- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص322.

الزبرقان بن بدر "أنه رجل أسلم فحسن إسلامه وآمن فثبت إيمانه"¹، وذكر ضمن وفود العرب التي وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم. وجاهد إلى جانب خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما وأبلى معهما بلاء حسنا. فاجتمعت أسباب الإدانة للحطيئة من بين يديه ومن خلفه، قبل قراءة قصيدته وتقديمها دليلا على تهمة "الهجاء المقذع" التي حكم عليه بسببها؛ وتلك كانت العتبة الثالثة على أبواب المواجهة الشعرية.

وعلى مشارف القصيدة التي قدمت صك اتهام ضد الحطيئة، نرى أنه قد أبدى خلالها وفاء وبرورا لممدوحه "بغيس" وقومه المعروفين بين العرب ببني أنف الناقة. وقد كان في أول أمره يمدح بغيسا دون أن يعرض بالزبرقان، رغم تحريضهم عليه؛ "حتى أرسل الزبرقان إلى رجل من النمر بن قاسط يقال له دثار بن شيبان، فهجا بغيسا وفضل الزبرقان.. ولما سمع الحطيئة هذا ناضل عن بغيس وهجا الزبرقان"². فنلاحظ هذا التمسك من الحطيئة بثقافة العرب في المدح والهجاء وأعرافهم خلالهما، وهي الملاحظة التي لا يُراد لها البروز من أنصار الزبرقان. فجاءت قصيدة الحطيئة في مدح "بغيس" وقومه، والتعريض بالزبرقان وأهله، وخصوصا بعدما قصروا في إكرام الحطيئة، فدفعته جفوتهم إلى الانقلاب عليهم، والتعلق بمنائهم. فجاء هذا النص الذي كسر به الحطيئة كل القيود التي لفت حوله، وثأر به لممدوحه بغيس، كما ثأر قبل لقومه بني أنف الناقة؛ نصّ أثار صخبا كثيرا في تاريخ الثقافة العربية عموما وفي تاريخ الشعر العربي خصوصا. ومن مفارقاته الكثيرة أنه تضمّن أهجى بيت قالته العرب وأصدق بيت قالتها العرب. كما جمع بين قوّة الثناء في المدح وشدة الإقذاع في الهجاء؛ في نسق تقابلي حافل بالمتضادات والمتنافرات، ممّا شكّل أهم نقط قوته وأشد أسباب جماله وتأثيره.

فيستهل الشاعر نصه بمخاطبة من لاموه في مدح بغيس وقومه، وما هو إلا غريب ألفى من يكرمه ويحسن نزله فانقلب إليه وأشاد به وبرّه. فردّ الشاعر المدح إلى أصله وهو شكر على معروف سابق وثناء مقابل ودّ فائت. وقد ابتدأ باللوم، وهو بنية أصيلة في مطالع القصائد العربية ومقدماتها لاستجلاب تعاطف القراء وكسب ودهم. ثم يتساءل بعد ذلك تساؤل المستنكر عن سبب تكليفهم مجد ممدوحه، والمجد إنما ينبعث من أصله انبعاث النوق الأصيلة من جبال أوطاس (وأوطاس واد في ديار هوازن). ثم ينتقل في البيت الثالث إلى دفع اللوم عن ممدوحه "بغيس" بعد أن دفع اللوم عن نفسه، بغيس الذي لم يفعل غير ما تمليه عليه المروءة العربية والأعراف القبلية في إكرام الحطيئة الغريب عن موطنه، البائس في أهله، الذي يعاني سوء الحال وشدة المحل؛ فقد "أصابت الناس سنة شديدة، وكان الحطيئة فيمن انحدر مع الناس، فلم يكن به من القوة أن يكون في أول الناس"³. فجلب سوء حال الشاعر كرم ممدوحه، كما كان يمكن أن يجلب عطاء كل رجل كريم وكل عربي أصيل.

1- سعود محمود عبد الجابر، شعر الزبرقان بن بدر وعمر بن الأهتم، ص 16.

2- البغدادي، خزانة الأدب، 405/1.

3- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، ص 117.

ثم يستمر الشاعر في مخاطبة لائميته، ويحملهم جريرة فعلهم، وأنه طلب عطاءهم بكل لين فلم يظفر منهم بشيء، "فأبان عن غرضه في أجمل صورة وأروعها وأدناها إلى أفهام هؤلاء الناس من أهل البادية، حين مثل حاله معهم بحاله من الناقة ذات اللبن القليل، أو غير ذات اللبن، يريد أن يحملها فلا تدر له شيئاً. فما يزال يمرى ضرعها ويمسه ويمسحه، يتكلف من ذلك ما يريد وما لا يريد، لعله يظفر بشيء، لكنه لا يصيب شيئاً ثم هو ينتظر وينتظر فلا يفيد الانتظار شيئاً"¹ فيستجلب الحطيئة صوره من أجواء البادية العربية العميقة، حيث جفاف الضرع بين يدي الأعرابي الذي يمسح ضرع ناقته مستندراً لبنها، ويُسكّنُها بالصوت الذي تحبه (الإبساس)، لكن جهوده باءت بالفشل ولم يحصد غير الجفاف والجفاء، فلم ينتقل عنهم إلا بعد اليأس من عطائهم، كما يئس من الناقة التي جف لبنها.

وبالإضافة إلى اللبن الذي يشكل مادة أساسية للعربي في الغذاء، يشكل الماء العنصر الآخر المفتقد في بيئة صحراوية جافة، فيشبهه من جديد الشاعر طلبه لأهل بيت الزبرقان بعد مدحهم بمن يستسقي ماء عن عطش، ويطلب خلاصاً وإنقاذاً من خطر، فلا يظفر بشيء.

ويضيف الحطيئة في الحجاج لتحميلهم مسؤولية ما صدر منه نحوهم. فإنه لا يملك أن يجعل بغضهم حباً؛ فنفوسهم نحوه كالفارك التي تبغض زوجها، وكتلك التي تكره أن تدخل معه ثوبه، كما تكره أن تُدخله معها ثوبها، وهي صورة من العلاقات الزوجية في الحياة اليومية بين الأزواج.

ثم ينتقل الشاعر إلى تصوير الحالة التي وصل إليها بعد أن اكتشف بعد عطاياهم واكتشاف ما خبأته أنفسهم من الكره والبغضاء، وإعراضهم عن مداواة جراحاته الغائرة، وإصلاح سوء حاله البين وحاجته وفقره. حيث وصل إلى درجة من اليأس من عطائهم، هذا اليأس الذي لا يطرد الحر غيره.

ويستمر الحطيئة في دفع الإذئاب عن ممدوحه بغيض، الذي لم يفعل غير ما تفرضه عليه قيمه الأصيلة، لما رأى فاقة الحطيئة وفقره، والظروف الصعبة التي يمر بها ويعيش فيها. ولما رأى من حاله في ديار الزبرقان، لما تركوه كأنه مقيم بين الأموات أو بين القبور. بعد أن ملوا قراه، وضاقوا بوجوده بينهم، وأسأؤوا له وأذوه، بأفعالهم وأقوالهم.

ثم يدعو بعد ذلك الشاعر أمامَ إلى السير قصد الوصول إلى أولئك الأكثر عدداً والأكرم أباً من آل شماس يمدحهم ويطلب نوالهم، بعد أن غادر حيّ أهل الزبرقان بن بدر الذين لم يأبهوا به فلم يظفروا بمدحه بل عانوا من ويل هجائه.

فَها هو يُعرض برأس القوم الزبرقان بن بدر، ويدعوه إلى أن يكف عن طلب المكارم ولا يرحل في طلبها، ويكفيه من أمره الشبع واللباس، أو إمعاناً في الهجاء أن يأتيه الطعام والملبس.... وهو البيت الذي صنف ضمن أقسى الهجاء، كما أنه هو البيت الذي جعل الزبرقان يجر الحطيئة إلى ردهات المحاكم أمام عمر ابن الخطاب، وهو يقول: "أو ما تبلغ من مروءتي إلا أن أكل وألبس"، وهو البيت الذي جعل حسان بن ثابت يقول على ما قيل في الزبرقان: "ما هجاه ولكن سلح عليه". وفضلاً عن كل ذلك فقد اخترق هذا البيت مجالات

1- طه حسين، حديث الأربعاء، 140/1.

معرفية متعددة في الثقافة العربية؛ فقد صنف البيت نقدياً أنه أهجى بيت قالته العرب¹، وهو من الشواهد الدائرة في كتب النحو²، والبلاغة³، وفي المعاجم⁴، وفي كتب التفسير⁵.

وبعد أن وصف ممدوحه بغيض بالكرم والجود والعطاء، يبالغ في وصف مهجوه الزبرقان بالبخل؛ ومن أجل تجسيد هذا البخل حكائياً يدعوه إلى أن يبعث راعيه يساراً إلى تلك "الوطاب أي المزايدة المملوءة لبنا المذمومة من الأضياف لعدم الإنفاق منها، ويدعوه إلى الرحيل على ما ترحل عليه النساء أي "الحدج" من البعير، وقد يريد برحيله على "ذي عركين" أنها لا تُسرّع حتى لا يُراق اللبن بخلا منه. حيث يستمر الشاعر في استجلاب الصور من مجتمعه البدوي القريب منه، ومن حياة العرب اليومية المتردية بين البخل والكرم.

ثم أردف ذلك بتبيان عواقب الإحسان وفعل الخير؛ فمن يفعل الخير لن يعدم جزاء عليه من الله ومن الناس، ويوصف بأنه أصدق بيت قالته العرب، بل إن بعض المصادر تذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد تمثل بهذا البيت في حضور كعب الأحبار، الذي قال له: في التوراة مكتوب: "من يصنع الخير لا يضيع عندي، لا يذهب الخير بيني وبين عبدي"⁶؛ مما يستدلون به على اطلاع الحطيئة على الفكر الديني السابق على الإسلام، بالإضافة إلى إحاطته العميقة بثقافة العرب وآدابهم وأخلاقهم.

فلا ذنب لي، يقول الشاعر، أنكم لم تفلحوا فيما أردتم به صفاء آل بغيض من سوء عبر عنه بفلول معاولهم. "قال أبو عمرو: ما كان ذنباً؛ فإني مدحت هؤلاء لأنهم أشرف منكم، ولهم مجدٌ راس لا تطيقون إزالته"⁷. ولما فاخروك رجحوا عليك، وانتصروا عليك بأبائهم وأجدادهم، و"في شرح ابن الشجري: أي لما رميت ورموا، فلجّوا عليك، فجاءوا بما لم تجئ به، كأنهم فاخروه فرجعوا عليه بأبائهم وأجدادهم، وضرب النبل والكنانة مثلاً، وقال أبو الهيثم خالد بن مكنوم: النكس من السهام: المنكوس الذي جعل أعلاه أسفله، فهو ضعيف أبداً، فأراد: أن ما افتخروا به ورموك به من فخرهم كان قويا كنبل ليس بأنكاس"⁸...

إن قوة هذه القصيدة تتجلى في البدء في قوة المصادر الثقافية التي تكرر منها أفكارها وصورها، مما يعبر عن قوة عارضة الحطيئة الشعرية وامتلائه الثقافي. فيشبه المجد الأثيل بنوق من جبال أوطاس. ويمثل لحاله مع أهل بيت الزبرقان بمن يستدر لبن ناقة عجفاء، وبمن يستسقي ماء أرض قاحلة. ويقيس وقت

1- أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، شرحه وضبط نصه: أحمد حسن سح/ دار الكتب العلمية، 1994، 169/1.

2- ينظر: ابن يعيش الموصلي، شرح المفصل للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 2011، 482/3، وفيه تخريج البيت، وذكر أن الشاهد فيه قوله: "الطاعم الكاسي" حيث استغنى عن ياء النسب بصوغ الفاعل بمعنى "صاحب طعام" و"صاحب كساء".

3- احتفى الجرجاني في دلائل الإعجاز ببلاغة البيت كثيراً، ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984، ص: 471، وص: 487. كما تحدثت كتباً لبلاغة في البيت عن المجاز والأمر والنهي.

4- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، في المواد: "ذرق"، "طعم"، "كسا".

5- ينظر مثلاً: أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: سالم مصطفى البديري، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد السادس، 116/12.

6- ابن عبد ربه، العقد الفريد، 154/1.

7- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، ص 120.

8- ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت، ص 120.

انتظاره بمن ينتظر إبلا صادرة لا أمل في شعبها.. وشبه بغضهم له بالفارك التي تبغض زوجها، وبالجرير الذي لم يلف لدائه مداويا، وبمن يسير في أرض وعرة، وكمن يعيش بين أرماس. ثم يجعل من الزبرقان كمن لا تبلغ مروءته إلا أن يأكل ويلبس، ووطابه مملوءة لا يكاد يُراق منها شيء لأضياف أو غيرهم. بينما ممدوحه ذو مجد راس تليد، كالإبل والنوق الأصيل، وكالسهم القوية غير المنكوسة... فتدور كل هذه الصور المنحوتة من ثقافة عربية أصيلة، تعيش في البادية الصحراوية القاحلة، وهي أحد أوجه شدتها على الزبرقان وقومه، حيث الإبل بأصيلها وبخيلها، والأرض بسهولها ووعورها، بأحيائها وأمواتها، بصدورها وورودها، والإنسان بكرمه وبخله، وبمروءته وخيانتته، وبقربه وبعده، وبصحته ومرضه... وكلها مؤثبات الحياة العربية الأصيلة، ومكونات الثقافة البدوية التي يخبر الحطيئة تضاريسها وتفاصيلها.

وبالإضافة إلى هذا الثقل الثقافي تتميز الأبيات كذلك بقوة المصادر الفنية التي تمتع منها أصولها وبناءها ولغتها، حيث ينقل الشاعر في مقدمته لوم اللائم، ومعاناة الشاعر النفسية قبل الانتقال إلى ممدوحه والانقلاب على مهجوه، ثم يستحضر العيس في تمظهرات مختلفة، وهي مكونات نووية في القصيدة العربية الأصيلة، في الرحلة، وفي تجليات الكرم، وفي الاستجداء. واللوم وهو عنصر فاعل وأساسي في المقدمة النسيبية، وله دور مهم في اضطراب أحداثها وفي المواجهة بين الشاعر والشخص التي تحول بينه وبين متعة الوصال. لينتقل بعد ذلك إلى مدح ممدوحه بالكرم وشرف المحتد، وفعل المعروف، والمجد التليد. وفي المقابل يُعرض بالمهجو بالبخل، وإهانة الضيف، وانعدام المروءة والشرف...

ومن أوجه قوتها كذلك جمعها بين المدح والهجاء، وبين الثناء والتعريض. فتضمنت ما وصف بأنه أهجي بيت قالته العرب، وما اعتُبر أصدق بيت قالته العرب. واحد عاقب عمر بن الخطاب الحطيئة عليه، وآخر تمثل به وأعجب بمعناه. يذكر الممدوح باسمه وباسم آله، ويكتفي بذكر المعرض به أو قومه بضمائر الغائب، وهم من هم بين أحياء العرب وزعمائهم، ويترك لسياق الحال تحديد المقصود من تعريضه، وللخبراء بالشعر الوعي بمدحه وهجائه. وهو ما أدرك عمقه عمر بن الخطاب وهو يحذر الحطيئة من المُقذع من القول¹، أي ذلك الذي يرفع من مكانة ممدوحه ويحط من قيمة أعدائه؛ وهو أشد أنواع الهجاء على النفس، وأكثره تأثيرا فيها، وهو يبني صورتين متقابلتين؛ صورة غاية في الصفاء والوفاء والسمو، وأخرى غاية في البشاعة والخذلان والدنو.

لم يرد الزبرقان عن هذا الهجاء الحاد الذي قابل فيه الحطيئة بين صفات ممدوحه "بغض" المفعمة بالإيجابية، وصفات "مهجوه" الزبرقان المغرقة في السلبية. كما أنه لم يأمر من كان قبله من الشعراء بالرد على الحطيئة، وهو آخر الفحول، وأحد خبراء العرب في الهجاء، وسليل مدرسة زهير بن أبي سلمى... لقد أدرك الزبرقان سريعا أن هذه المعركة محسومة شعريا وثقافيا لصالح الحطيئة، فأضرب عن عادات العرب في رد الهجاء بمثله، ورفع أمره إلى الحكم الإسلامي الجديد طالبا القصاص لعرضه المراق وشرفه المهدور،

1- في قوله له: "إياك والمقذع من القول، قال: وما المقذع؟ قال: أن تخاير بين الناس فتقول فلان خير من فلان، وآل فلان خير من آل فلان..." ابن شبة، تاريخ المدينة، 787/3.

مستفيدا من توجيهات الإسلام المعارضة لهذا الجنس من القول وقوانينه الصّارمة في حفظ الأعراض. وحتى لا يتسرع عمر بن الخطاب في حكمه، أو حتى يؤسس لقاعدة "الخبرة القضائية" في إثبات الأحكام التي تحتاج إلى خبراء في مجالهم يخبرون دقائقه وتفصيله. فاستدعى خبيرا بالشعر ممّن أحاط بأساليب الشعر العربي في الجاهلية والإسلام، وممّن أشبع بالثقافة الإسلامية الرشيدة وتخلص من شوائب "الثقافة الجاهلية" المعارضة لأحكام الدين الجديد. فجاء تقرير حسان بن ثابت بليغا موجزا، معبرا عن إيجاع في الهجاء، محملا بصورة مجازية مغرقة في التّخيل، تُصور الحطيئة ممعنا في الإيذاء التّفسي للزّرقان. وقد وصفه في تقريره البليغ بأنّه لم يهجه، ولكن فعل به ما هو أكثر من الهجاء وأقسى، "فقد سلح عليه"، أي "أفرغ عليه ما في بطنه". فاستشعر الحاكم عظمة الفعل وشناعته، فجاء الحكم من مستوى جسامه الفعل من منظور الثقافة المستجدة. فحبس الحطيئة في حفرة تحت مستوى الأرض، ويضيف بعض الرواة أنه أُلقي في بئر، وأُلقي عليه حصّصه أي زبله من جلود وأدم.

لقد اجتمعت السّلطة السّياسية والسّلطة الشّعريّة لتعاقب صوتنا شعريّا ناشزا من منظور الثقافة الإسلامية الجديدة. وتنصف شاعرا مسلما تخلص عن نزغات الشعر وتخلص من بقايا الجاهلية ليلتحق بالعقيدة الإسلامية ويصير عمدة من أعمدتها. غير أن الحطيئة لن يستسلم لسجنه بهذه السهولة، وسيلجأ من جديد إلى ثقافته الشّعريّة الغنّاء، ويستدعي منها ما يقاوم به هذا الحكم القاسي الذي أودعه سجنًا مذلا. فيصور مأساة أبنائه الصغار في صورة يرقّ لها قلب عمر بن الخطاب فيبكي متأثرا. فيخاطب الشاعر عمر بن الخطاب خطابا عاطفيا يستحضر فيه أبناء الصغار، ويجعلهم أفراخا ضعافا يعانون الجوع والعطش بذي مخ في أرض قاحلة لا ماء فيها ولا شجر، بعد أن سجن كاسمهم في هذه البئر المظلمة.

ثم مارس الحطيئة نوعا من "التقيّة الشّعريّة" جعلته يعبر تعبيرا إسلاميا في جوهره، ما أبعد شعر الحطيئة الذي وصلنا عنه! خصوصا في قوله: "فاغفر عليك سلام الله يا عمر". ثم يمدح عمر رضي الله عنه بما يعلم وقعه في نفسه: الأمانة، والإمامة/الإمارة، ويعود إلى ما يتقنه من استجداء واستنجاز. حيث يطلب منه أن يمنّ عليه بالحرية مستعظفا ببنيه وأهله، ومعاناتهم في غياب معيلهم، يغشاهم القَرّ في الأباطح، ومعاناته بعيدا عنهم، حيث يصف منفاه بأسلوب شعري ناعم، فبينه وبين أهله مسافات طويلة يفنى به "الحجر".

وبين العقاب والعفو، وبين التنفيذ والوعيد، يواجه عمر بن الخطاب ممثلا للمجتمع الجديد الحطيئة، ممثلا للثقافة المتوارثة، بقوة وصرامة، حتى يثنيه على ما هو عليه من الهجاء والتّشبيب بالنساء وذمّ الناس، في صورة درامية يهتز لها قلب الحطيئة من مكانه، وهو على مقربة من قطع لسانه¹. لكن بعد تدخل من حضر المجلس، انتقل قطع اللسان من الصورة الحقيقية الأولى باستدعاء الكرسي والموسى والطست، إلى صورة مجازية، بقطع لسان الشاعر بالعطاء حين "اشتري منه أعراض المسلمين جميعا بثلاثة آلاف درهم".

1- من الآراء التي يُستأنس بها حول هذه الواقعة رأي عباس محمود العقاد الذي اعتبر هذه الحادثة من فكاهات عمر بن الخطاب؛ يقول: "ومن فكاهته القوية تلك المزحة المربعة التي أطار بها لب الحطيئة، ليكف عن هجاء الناس" عباس محمود العقاد، عبقرية عمر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط 10، 2006، ص 67.

فلم يتوارَ عنه حتى أخذ منه عهدا بعدم العودة. لكن بعد وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه استمر الحطيئة يمارس حياته وشعره كما ألفهما، وواصل الانغماس في ثقافة بدوية جاهلية يحرص على الوصول بها إلى الأجيال اللاحقة.

7- الثقافة الممتدة والذاكرة المستعادة:

تجد هذه القراءة في الحطيئة صورة المثقف الذي لا يقف على الحياد، والذي استطاع التشبث بطريقته في الحياة ومذهبه في الشعر، بكل ما أوتي من عارضة شعرية وإحاطة ثقافية. واستمسك بسفينة الشعر حين غادرها الجميع، واستطاع، كما سنرى هنا، أن يصل بها إلى برّ الأمان؛ بما يمثله من مرجعية شعرية وثقافية راسخة في المجتمع البدوي العربي، في أساليب القول وعادات القوم. مما لا يكاد يضاهيه غيره تمكّنا منه وجهرًا به كما رأينا سابقًا. وهو الذي كان قبل الإسلام عمودًا من أعمدة مدرسة "عبيد الشعر"، ثم وجد نفسه بعد الإسلام وانتشار أمره العمود الأوحّد الصامد، المحقّز على التمسك بالشعر وثقافته بعد أن انصرف عنهما الجميع. وهو جانب من أهم جوانب "شخصية الحطيئة" المتعدّدة، التي غابت عن الدارسين، وهم يتوارثون صفات "القبّح واللؤم والبذاءة"، ويسبغونها عليه بسخاء.

لقد كانت مدرسة عبيد الشعر من أهم المدارس الشعرية التي رسخت وجودها في تاريخ الشعر العربية في الجاهليّة، واستطاعت بفضل الحطيئة أن تحفظ مكانتها واستمراريّتها بعد الإسلام. وقد تلمّس الجاحظ أثر هذه المدرسة وحدّد أهم خصائصها وهو الخبير في منابع الثقافة العربية وأساليب الشعر العربي، يقول: "ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا، وزمنا طويلا، يُردّد فيها نظره، ويحيل فيها عقله، ويقلّب فيها رأيه، اتهامًا لعقله، وتتبعًا على نفسه، فيجعل عقله زمامًا على رأيه، ورأيه عيارًا على شعره، إشفاقًا على أدبه، واحرازًا لما حوّلّه الله تعالى من نعمته"¹. حيث تُقاس جودة الشعر عندهم بالمدة الزمنية التي يتم خلالها الاشتغال بالقصيدة، ثم بالعمل الدؤوب والمتواصل فيها. ويتحدّد مدى هذه المدة الزمنية في "الحول الكامل التام" و"الزمن الطويل الممتد". بينما تتحدّد الإجراءات في ترديد النظر، وتعميق التفكير، وتقليب الرأي، وتحكيم العقل، تقديرًا للأدب، وتعظيمًا لنعمه.

الحول الكريت	مقياس زمني	جودة الشعر لدى عبيد الشعر
الزمن الطويل		
ترديد النظر	مقياس كيفي	
إجالة العقل		
تقليب الرأي		
تقدير الأدب وتعظيم نعمته		

1- أبو عمرو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 7، 1998، 9/2.

أما "هوية" هؤلاء الشعراء الذين اصطلاح عليهم بعبيد الشعر؛ فقد "كان الأصمعي يقول: زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبید الشعر، لأنهم نقّحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين، وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحوليّ المحكّك، وكان زهير يسمي كبرى قصائده الحوليات"¹. فيصنف الأصمعي زهيراً والحطيئة زعيمين أساسيين لمدرسة عبید الشعر، مما رسخه الحطيئة بتحديد معيار جودة الشعر في "الحولي المنقّح المحكّك"، ورسخه زهير بإطلاق اسم الحوليات على قصائده الكبرى. ويحدد ابن رشيق هوية باقي شعراء هذه المدرسة بقوله: "ومن أصحابهما (أي زهير والنابعة) في التنقيح وفي التثقيف والتحكّيك طُفيل الغنوي، وقد قيل: إن زهيراً روى له، وكان يسمى "مُحيراً" لحسن شعره، ومنهم الحطيئة، والنمر بن تولب، وكان يسميه أبو عمرو بن العلاء "الكيس"². فالثابت في كل التحديدات لرواد هذه المدرسة الشعرية العريقة أنها تجمع على زهير والحطيئة وقد تفرقت في غيرهما، وفي الأغاني "قال حماد وسمعت أبي يقول: أما إني ما أزعّم أن أحداً بعد زهير أشعر من الحطيئة."³

فنحن هنا أمام شجرة نسب شعري، ينطلق من الطّفل الغنوي وأوس بن حجر، ويعقبهما زهير بن أبي سلمى والنابعة الذبياني، ويصل أمرها من المخضرمين إلى كعب بن زهير، ثم الحطيئة، والنمر بن تولب، وهناك من يضيف غيرهم، غير أن هؤلاء هم الأكثر حضوراً في نصوص المنظرين لهذه المدرسة، وشعرهم أكثر استجابة للمعايير النقدية التي وضعوها.

فقد اشتهر عن الحطيئة في تفضيلاته النقدية أنه كثيراً ما يفضل عليه زهيراً وأحياناً يضيف النابعة، ثم ينظم نفسه مباشرة بعدهما انتساباً لهذا المذهب، وتأكيداً على مكانته ضمن سلسلة فحوله، فقد "كان زهير أستاذ الحطيئة، وسئل عنه الحطيئة فقال: ما رأيت مثله على أكناف القوافي، وأخذه بأعنتها حيث شاء، إلا أن تُراني مُسَلَّنطحا واضعاً إحدى رجلَيّ على الأخرى، رافعا عقيرتي في أثر القوافي"⁴. وحين طلب الحطيئة من كعب أن يذكره في شعر يذكر فيه "أهل البيت" (يقصد أهل بيت آل سلمى)، كان بحثاً من الحطيئة عن فضل الانتماء إلى هذا البيت الشعري الأصيل، وشرف الاهتداء بهدي زهير، ودفاعاً عن مدرسة شعرية أصيلة في الشعرية العربية، بعد ذهاب الفحول وتواري كعب بن زهير، وبقاء الحطيئة مفرداً في معركة قاسية للدفاع عن قيم شعرية وثقافية أضحت توصف بالجاهلية.

ثم بعد ذلك استمر تأثير هذه المدرسة بتأثير الحطيئة، وامتد حضورها في الساحة الشعرية العربية بعد عصر الخلفاء الراشدين أقوى وأرسخ. فها هو هذبة بن خشرم (ت50هـ) "شاعر فصيح متقدم من بادية الحجاز، وكان شاعراً راوية، وكان يروي للحطيئة، والحطيئة يروي لكعب بن زهير، وكان جميل راوية هذبة،

1- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص78.

2- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 1/133.

3- الأصفهاني، الأغاني، 2/110.

4- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص143-144.

وكثير راوية جميل¹. فتُستكمل شجرة النَّسب الشعري لمدرسة عبيد الشعر بعد الحطيئة، لينهض برسالتها شعراء كبار يضمنون لها الاستمرار والتجويد الشعري:

كعب بن زهير ----- الحطيئة ----- هذبة بن خشرم ----- جميل بن معمر ---- كثير

فقد روى صاحب الأغاني "عن رجل من كعب قال: جئت سوق الظَّهر فإذا بكثير، وإذا الناس متقصِّفون عليه، فتخلَّصت حتى دنوت منه فقلت: أبا صخر؛ قال: ما تشاء؟ قلت: من أشعر الناس؟ قال: الذي يقول:

آثرتُ إدلاجي على ليلِ حُرَّةٍ *** هَضِيمِ الحَشَا حُسَّانَةَ الْمُتَجَرِّدِ

وَتَفَرَّقُ بِالْمَدْرِ أَيْثًا نَبَاتُهُ *** على واضحِ الذَفْرِ أَسِيلِ الْمُقْلَدِ

قال: قلت: هذا الحطيئة؟ قال: هو ذاك.²

إن هذا الصِّمود الذي عبَّر عنه الحطيئة، والتَّمسك بالثقافة والشَّعر حين انصرف عنهما الجميع؛ هو ما جعل الحطيئة في أواخر حياته، مصدرا من مصادر الشَّعر العربي المشبع بالجودة والفحولة، ومرجعا ثقافيا تكون له الكلمة الفصل في النوادي الثقافية التي يحضرها، كما استطاع أن يثبت مكانته في المجتمع العربي المتشكل حديثا، ويصير مهاب الجانب مُقدِّرا من لدن الجميع، مما تدل عليه الكثير من الوقائع التي حدثت في أواخر حياته.

فهذا حسان بن ثابت، رغم مكانته في المجتمع الشعري العربي وكذلك في المجتمع الإسلامي بين الصحابة، ينأى عن الحطيئة ويطلب صمته؛ فقد "روى الزبير أن أعرابيا وقف على حسان وهو ينشد، فقال له: كيف تسمع؟ قال: ما أسمع بأسا، قال: فغضب حسان، فقال له: من أنت؟ قال: أبو مُليكة. قال: ما كنت قط أهون عليّ منك حتى اكتنيت بامرأة، فما اسمك؟ قال: الحطيئة. فأطرق حسان، ثم قال: امض بسلام!"³

وفي طبقات فحول الشعراء، الأقرب إلى هذه المرحلة؛ "كان الحطيئة سؤولا جشعا، فقدم المدينة وقد أرصدت له قريش العطايا، والناس في سنة مُجْدِبة، وسَخْطة من خليفة. فمشى أشراف أهل المدينة بعضهم إلى بعض، فقالوا: قد قدِم علينا هذا الرجل، وهو شاعر، والشاعر يظُنُّ فيُحَقِّق، وهو يأتي الرجل من أشرافكم يسأله، فإن أعطاه جهْدَ نفسه بهرَّها، وإن حرَّمه هجاه. فأجمع رأيهم على أن يجعلوا له شيئا مُعْدا يجمعونه بينهم له، فكان أهل البيت من قريش والأنصار يجمعون له العشرة والعشرين والثلاثين دينارا حتى جمعوا له أربعمئة دينار، وظنوا أنهم قد أغنوه، فأتوه وقالوا له: هذه صلة آل فلان، وهذه صلة آل فلان، فأخذها، وظنوا أنهم قد كفوه المسألة، فإذا هو يوم الجمعة قد استقبل الإمام مائلا ينادي بعد الصلاة، فقال: من يحملني على نُغْلين وقاه الله كَبَّةَ جهنم"⁴. وإذا كان ابن سلام يقدِّم الواقعة دليلا على مبالغة الحطيئة في الجشع والسؤال، فإنها كذلك تبين أن الرجل كان في آخر حياته مهاب الجانب، وقد رجَّح المحقق

1- عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، 334/9.

2- الأصفهاني، كتاب الأغاني، 130/2.

3- ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، 150/2.

4- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، 114-113/1.

أن تكون الواقعة قد حدثت في عهد معاوية، مقدّراً بين الناس في المدينة وفيها من فيها من المهاجرين والأنصار، يسعى الناس إلى إعطائه رغبة ورهبة؛ "لأنه يظنّ فيحَقّق" ويهجو من حرمة، رغم ما يعانونه من سنتهم المجذبة وسخطة الخليفة عليهم.

وعند ابن سلام وغيره: "دخل الحطيئة على سعيد بن العاص متنكراً، فلما قام الناس وبقي الخواص: أراد الحاجب أن يقيمه، فأبى أن يقوم، فقال سعيد: دعه. وتذكروا أيام العرب وأشعارها، فلما أسهبوا قال الحطيئة: ما صنعتم شيئاً. فقال سعيد: فهل عندك علم من ذلك؟ قال: نعم. قال: فمن أشعر العرب؟ قال الذي يقول:

قَدْ جَعَلَ الْمُبْتَغُونَ الْخَيْرَ فِي هَرَمٍ *** وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقًا

قال: ثم من؟ قال: الذي يقول:

فإِنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ *** إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكِبُ

يعني زهيرا والنابغة، ثم قال: وحسبك بي إذا وضعت إحدى رجلي على الأخرى، ثم عويت في إثر القوافي كما يعوي الفصيل في إثر أمه! قال: فمن أنت؟ قال: الحطيئة. فرحب به سعيد، وأمر له بألف دينار¹. فالحطيئة أضحى ذلك الرجل الذي يظهر فجأة في كل مكان فيحتفى به ويُتقى لسانه، صار ذلك الرمز الذي يختصر مرحلة بكل ثقافتها وعمقها وعنفوانها. مما يبين المكانة التي صار يحتلها لدى النخب الثقافية والسياسية، وقد كان سعيد بن العاص من ولادة عثمان ومعاوية، احتفى بالحطيئة وأمر له بألف دينار. واعتبره ومن معه في المجلس مرجعية راسخة في الشعر العربي، يُسأل عن الشعراء المجوّدين؛ فيبدأ بزهير ثم يعقبه بالنابغة ثم يُصَيّر أمر الشعر بعدهما إلى نفسه. ويختار أجود الشعر من غرر المدائح، لأن في المدح يجود الشعراء، لما اكتسبوا فيه من تجارب وترسّخ لديهم خلاله من بنيات وقيم.

ومن آثار هذا الحضور الوارف للحطيئة في المجتمع الشعري العربي بعد الخلفاء الراشدين، شعراء ناشئون، يروون أشعاره ويفضلونه، ويدعون الانتساب إليه، ففضلاً عن هذبة بن خشرم المذكور آنفاً، والذي أوصل ثقافة الحطيئة الشعرية إلى جميل وكثير، فقد أبرزت النصوص النقدية الكثيرة علاقة ثقافية وشعرية قوية بين الحطيئة والفرزدق. وهو تشابه يبدأ من لعنة الاسم التي لاحقت الرجلين معاً، وقد ذكرنا سابقاً الوسوم السلبية التي لاحقت الحطيئة من خلال لقبه، وهو ما لم يسلم منه الفرزدق بدوره: "فإنما لُقّب الفرزدق لِغِلْظِهِ وَقِصْرِهِ، شبه بالفتية التي تشربها النساء، وهي الفرزدقة"². وكما رأينا مع الحطيئة فرغم هذا الوسم السلبي المنبعث من الاسم؛ فقد أجمع النقاد على شاعرية الفرزدق وتفوقه؛ فعند ابن قتيبة: "وكان الفرزدق معنّاً مَفَنّاً، يقول في كل شيء، وسريع الجواب"³. ويصرّ النقاد في مناسبات كثيرة على الرّبط بين الفرزدق ورواد مدرسة عبيد الشعر وخصوصاً زهير والحطيئة؛ وعند ابن قتيبة دائماً: "وسمعت

1- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، 121/1.

2- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 472.

3- المصدر نفسه، ص 473-474.

أبا عمرو بن العلاء يقول: الفرزدق يُشَبَّه بزهير، وكان الأصمعي يقول: زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر، لأنهم نَقَّحوه ولم يذهبوا به مذهب المطبوعين...¹. وحين يذكر الفرزدق مرجعياته الشعرية فإنه يُصرّ على ذكر الحطيئة، وقد اشتهر قوله:

وَهَبَ الْقَصَائِدَ لِي النَّوَابِغُ، إِذْ مَضَوْا*** وَأَبُو يَزِيدَ وَذُو الْقُرُوحِ وَجَرُولُ

قال أبو محمد: أبو يزيد هو المخبل السعدي، وذو القروح امرؤ القيس، وجرول الحطيئة². وأورد الرواة والنقاد وقائع كثيرة تبرز تلك الصلات الوطيدة بين الحطيئة والفرزدق، وذكروا أنه "لما هرب الفرزدق من زياد حين استعدى عليه بنو نهشل في هجائه إياهم، أتى سعيد بن العاص -وهو على المدينة أيام معاوية- فاستجاره فأجاره، وعنده الحطيئة وكعب بن جُعيل التغلبي، فأنشده الفرزدق مدحته... فقال الحطيئة: هذا والله هو الشعر، لا ما تُعلِّلُ به منذ اليوم أيها الأمير! فقال له كعب: فضله على نفسك ولا تفضله على غيرك. قال: بل والله أفضله على نفسي وعلى غيري. يا غلام! لئن بقيت لتبرزن علينا. يا غلام! أنجدت أمك؟ قال: لا، بل أبي. يريد الحطيئة: إن كانت أمك أنجدت فإني أصبتها فأشبهتني، فألفاه لقن الجواب"³.

فالحطيئة يحسم في تفضيله الفرزدق عليه وعلى غيره، ويثني على شعره، ويتنبأ له بالتفوق على غيره من الشعراء، وبدون شك أنه يستند في ذلك إلى معايير التفضيل التي اتبعتها خلال مسيرته الشعرية، وأهمها الإحاطة بالثقافة العربية، والتجويد الجمالي والفني. ورغم الطابع الكوميدي الذي أنهى به النص والذي أريد به الاستدلال على سرعة بدهاة الفرزدق. فإن أهم ما في هذا النص هو هذه الصلات الفنية بين شعر الفرزدق وشعر الحطيئة، التي جعلته يثني عليه ويبالغ في الثناء على شعره، بعد أن كان في السابق يثني على زهير والنابعة، فتحول من أسلاف المذهب إلى امتداداتهم. فهو ثناء على الطريقة الشعرية التي تضمن للثقافة الشعرية العربية الاستمرار والمحافظة على وجودها في المجتمع الشعري العربي. فهو حكم نقدي مُنْبِن على تجربة ثقافية وشعرية راسخة يربط خلاله الحطيئة بين أصول مذهبه الشعري وفروعه، وهو ما لم يدرك أبعاده كعب بن جُعيل التغلبي، الذي لم يقبل هذا التقديم وأنكره في حينه.

إن أهم ما ننتهي إليه من خلال هذا الحضور الواضح للحطيئة في المجتمع الثقافي العربي في بداية العصر الأموي أنه استطاع، بدفاعه الطويل عن مذهبه الشعري وأساسه النقدية، وإيمانه بجذوى الثقافة التي يحملها وينظر لها في حياته وشعره؛ أن ينحت له مكانة في مجتمعه بكل تعقيداته واختلافاته وتحدياته. فصار مُقدِّراً من الطبقة المثقفة، يُسأل في الشعر والثقافة ويُنصت إليه، كما كان له دور أساسي في وصول مدرسة عبيد الشعر إلى الأجيال اللاحقة من الشعراء؛ وخصوصاً: هذبة بن خشرم، والفرزدق، وجميل، وكثير. وقد رأينا أن الحطيئة دافع بكل ما يمتلك من قوة وصمود على المستوى الشخصي، وبكل ما تسنى له

1- المصدر نفسه، ص 144.

2- المصدر نفسه، ص 120.

3- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، 222/1.

من تجربة شعرية وموهبة فنية وإحاطة ثقافية أن يوصل مشعل الشعر، أي شعر الفحول، إلى منتسبيه الجدد من الشعراء، ويضمن للثقافة الشعرية العربية الأصيلة الاستمرار والانتشار، بل والتقدير والتوقير.

8- الخاتمة:

رغم تلك الصورة البشعة، المغرقة في التبدد والتهميش، المتوارثة المتداولة بين جمهور الشعر العربي عن الحطيئة؛ فقد مكّنا التحليل الثقافي من استكشاف مساحات أخرى ظلت مُعتمة في فضاء هذه الشخصية الفريدة ثقافة وشعرا ونقدا. فالشاعر قد حسم أمره وهو يرسّخ مذهبه الشعري واختياراته النقدية ورسالته الثقافية في مجتمع يواجهه بالرفض والصدّ. ولم يكن للأمر علاقة بدفاع شخصي عن وضع اعتباري مفتقد في المجتمع، كما يدّعي المتعاطفون القلائل مع الحطيئة عبر العصور، بل كان أعمق من ذلك وأرسخ؛ بما له تعلق بقضية الشعر ومعايير النقدية وأنساقه الثقافية؛ ولعل هذا ما استدعى عليه وعلى شعره سخطا ونقدا نرى أنه بعيد عن الموضوعية العلمية والنظر النقدي الحصيف.

وكانت المواجهة الأبرز والتحدّي الأكبر الذي وجد الحطيئة نفسه خلاله، هو ذلك الاصطدام مع الزبرقان بن بدر، والذي جرّه إلى مجلس حكم عمر بن الخطاب، وقذف به في مساحات "الكفر والإيمان" و"الفضيلة والخطيئة"؛ فلما اشتدّ عليه الخناق هنالك استنجد بالشعر الذي يتقنه واستمسك بالمجاز الذي يخبر مضايقه. فاستطاع بالشعر أن يرفع من شأن ممدوحه "بغيز" وقومه ويحطّ من أمر مهجّوه "الزبرقان وأهله". واستطاع بالمجاز أن يغادر سجنه العميق الموحش ليظهر من جديد على وجه الأرض أقوى وأرسخ، وبالمجاز نجا من قطع لسان حقيقي وجعله قطعاً مجازياً كسب من ورائه مكاسب مادية ورمزية.

ورغم أنه خسر معركة الجمهور مع الزبرقان بن بدر، وجرت عليه الواقعة كرها متوارثا من المتعاطفين مع الزبرقان؛ فقد كسب "معركة الشعر والثقافة"، وهو يقول أهجى بيت وأصدق بيت قالتها العرب، كما قال قبل أمدح بيت في "بغيز" وأشهر بيت رفع قومه "بنو أنف الناقة". كما تفوّق في رصف هجاء وُصف بالمقذع كان أجود الهجاء وأقساه. والأهم من ذلك أنه يستعيد ذاكرة شعرية وثقافية يهددها النسيان، ويصير "مصدرا" نقدياً لا يمكن تجاوزه، ويضحي "رمزا ثقافيا" يظهر في كل مكان؛ يمدح فيرفع، ويهجو فيضع، يقول فيصدق، ويظنّ فيحقق.

المصادر والمراجع:

العربية:

- 1- إبراهيم (عبد الله) وآخرون عبد الله الغدامي والممارسة النقدية والثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003.
- 2- ابن الأثير (علي)، اسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، 2016.
- 3- إدجار (ندرو) وبيتر سيدجويك، موسوعة النظرية الثقافية، ترجمة: هناء جوهري، المركز القومي للترجمة، ط2، 2014.
- 4- أدونيس (أحمد سعيد)، الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط2، 1989.
- 5- الأصفهاني (أبو الفرج)، كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط3، 2008.
- 6- بدوي (أحمد زكي)، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان.
- 7- البغدادي (عبد القادر)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997.
- 8- الجاحظ (أبو عمرو عثمان)، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998.
- 9- الجرجاني (عبد القاهر)، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984.
- 10- ابن جعفر (قدامة)، نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 11- الجمحي (ابن سلام)، طبقات فحول الشعراء، قراه وشرحه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
- 12- الجندي (درويش)، ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1970.
- 13- أبو حاقه (أحمد)، فن المديح، منشورات دار الشرق الجديد.
- 14- حامد (خالدة)، غبش المرايا: فصول في الثقافة والنظرية الثقافية، منشورات المتوسط، إيطاليا، ط1، 2016.
- 15- حسين (طه)، حديث الأربعاء، دار المعارف، القاهرة، ط14.
- 16- الحطيئة (جرول بن أوس)، ديوانه، برواية وشرح ابن السكيت، دراسة وتبويب: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993.

- 17- الحطيئة (جرول بن أوس)، ديوانه، بشرح ابن السكيت والسكري والسجستاني، تحقيق: نعمان أمين طه، مكتبة مصطفى الحلبي، مصر، ط1، 1985، ص: 86.
- 18- خضراوي (إدريس)، الأدب موضوعا للدراسات الثقافية، جذور للنشر، الرباط، ط1، 2007.
- 19- ابن خلدون (عبد الرحمان)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط3.
- 20- الدناي (محمد)، نظرية الشعر لدى أبي العلاء المعري بين التصور والإنجاز، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، ظهر المهرارز، فاس، 1999-2000.
- 21- ابن رشيق (أبو علي)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- 22- الزبيدي (عبد المنعم خضر)، مقدمة لدراسة الشعر الجاهلي، منشورات جامعة قاريونس، ليبيا، 1980.
- 23- الزبيدي (محمد مرتضى)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وزارة الإعلام، الكويت.
- 24- ستوري (جون)، النظرية الثقافية والثقافة الشعبية، ترجمة: صالح خليل وآخرون، هيئة أبو ظبي، للسياسة والثقافة، ط1، 2014.
- 25- شهيد (عبد الفتاح)، الاشتغال الجمالي للمعنى الأخلاقي، دار الحامد، الأردن، ط1، 2015.
- 26- طه (فرج عبد القادر) وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1.
- 27- الطيب (عبد الله)، القصيدة المادحة ومقالات أخرى، جامعة الخرطوم، 1973.
- 28- عبد الجابر (سعود محمود)، شعر الزبرقان بن بدر وعمر بن الأهتم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984.
- 29- ابن عبد ربّه (أحمد)، العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى.
- 30- العسقلاني (ابن حجر)، الإصابة في تمييز الصحابة، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995.
- 31- العسكري (أبو هلال)، ديوان المعاني، شرحه وضبط نصه: أحمد حسن سبّح، دار الكتب العلمية، 1994.
- 32- العقّاد (عباس محمود)، عبقرية عمر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط10، 2006.
- 33- عكاشة (ثروة)، المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر، 1990.
- 34- العلوي (ابن طباطبا)، عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982.

- 35- عليمات (يوسف)، جماليات التحليل الثقافي: الشعر الجاهلي نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004.
- 36- غرينبلات (ستيفن) وآخرون، التاريخانية الجديدة والأدب، ترجمة: لحسن أحمامة، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، ط1، 2018.
- 37- فارس (أحمد)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979.
- 38- فتحي (فتحي)، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحددين، صفاقس، تونس، 1986.
- 39- قباوة (فخر الدين)، التحليل النحوي: أصوله وأدلتها، الشركة العالمية للنشر، الطبعة الأولى 2002.
- 40- ابن قتيبة (عبد الله)، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ط2، 1958.
- 41- القرطبي (ابن عبد البر)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الفكر، 2006.
- 42- القرطبي (أبو عبد الله)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: سالم مصطفى البدر، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد السادس.
- 43- قنصوه (صلاح)، تمارين في النقد الثقافي، دار ميريت، القاهرة، ط1، 2002.
- 44- كيليطو (عبد الفتاح)، المقامات: السرد والأنساق الثقافية، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 2001.
- 45- كيليطو (عبد الفتاح)، الأدب والغربة: دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط3، 2006.
- 46- لالاند (أندريه)، موسوعة لالاند الفلسفية، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط2، 2001.
- 47- ليتش (فينيست)، النقد الثقافي، من كتاب النقد الثقافي نصوص تأسيسية، ليتش وآخرون، ترجمة مصطفى بيومي عبد السلام، دار الفنون والآداب، العراق، ط1، 2019.
- 48- مجموعة من المؤلفين، قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996.
- 49- معروز (عبد العلي)، النظرية النقدية – أدورنو ومدرسة فرانفورت، سليكي إخوان، 2015.
- 50- ابن منظور (جمال الدين)، لسان العرب، طبعة دار صادر.
- 51- النيمري (عمر بن شيبه)، تاريخ المدينة المنورة، علق عليه وخرّج أحاديثه: علي محمد دندل، ياسين سعد الدين بيان، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 52- يعيش (موفق الدين)، شرح المفصل للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2011.

الأجنبية:

- 1- Anne Chalard-Fillaudeau, Les études culturelles, Presses Universitaires de Vincennes, Saint-Denis, 2015.
- 2- Cambridge University Press 2020. Cambridge dictionary, dictionary.cambridge.org.
- 3- Darras Bernard, Les études culturelles sont-elles solubles dans les Cultural Studies. Entretiens avec M-H Bourcier, F. Cusset, A. Mattelart, Revues MEI (Médiation Et Information), N.24-25 , 2007.
- 4- Dictionnaire larousse français , éditions Larousse, www.larousse.fr.
- 5- Edward Burnett Tylor, Primitive Culture, London, 1920.
- 6- Francesco Fistetti, Théorie du multuculturalisme, Traduit de l'italien par Philipe chanial et Marilisa Prezionic, Edition la Découverte, paris, 2009.
- 7- Jean – yves Calvez, Marx et le marxisme: une pensée, une histoire, Groupe Eyrollés, 2007.
- 8- John Ediridge and Lizzie Eldridge, Raymond Williams: Making connection, Routledge, london and New York, 1994.
- 9- Laurent Testot, Entretien avec Stephen Grenblatt, Sciences humaines, N. 300, Fevrier 2018.
- 10- M. Macquer; Dictionnaire de chimie; Tome 1; Arbre d'ore; Genève; Mars 2008.
- 11- Oxford English Dictionary, Oxford University Press, 2020.
- 12- Raymond williams, Politics and Letters: Interviews with new left Review, londers verso, 2015.